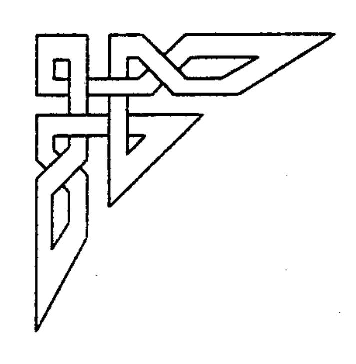


جامعة القاهرة
كلية دار العلوم
قسم الشريعة الإسلامية

تفسير قوله تعالى :

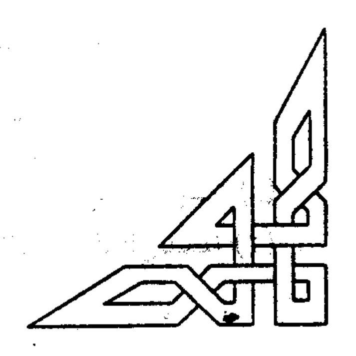
﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾

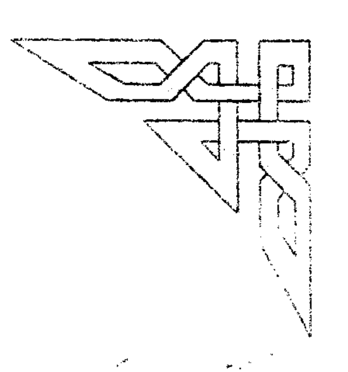
صدر الآية ٢٧٥ من سورة البقرة .

إعداد

الدكتور / إبراهيم عبد الرحيم

١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م





[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

إعداد

[illegible]

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث لهداية البشر أجمعين ، فَبَلَّغَ الرسالة وأدى الأمانة ، وتركنا على المحجة البيضاء ، ليلُها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

وبعد :

فهذه قراءة متأنية في جزء آية من آي الذكر الحكيم ، وَصَفَ الحقُّ سبحانه وتعالى فيه - في كلمات يسيرة وجامعة - عقوبةَ آكلي الربا بأنهم لا يقومون إلا كما يقوم الممسوس : فلماذا خُصَّ الأكل بالذكر ؟ ومتى يكون قيامهم ؟ وهل مَسُّ الجن للإنس على الحقيقة ؟ .. وأسئلة أخرى كثيرة يمكن أن تتفرع عن كل مسألة من هذه المسائل .

وحيث طلبت اللجنة العلمية الدائمة (الموقرة) تقديم دراسة وافية عن هذا الجزء من الآية الكريمة ، مع التركيز على قضية المس - أو تَلَبُّس الجن بالإنسان بين الإثبات والنفي - وبخاصة أن الناس تتطلع نفوسهم ، وتتشوف عقولهم دائمًا لمعرفة كثير من أسرار ما خَفِي عنهم ، وربما اختلقوا الأساطير والحكايات - من وحي الأوهام والخيالات - للوصول إلى ذلك المجهول ، ومن عالم الجن وعلاقتهم ببني الإنسان ، ومدى تأثير كل منهما في الآخر .

وإذا كان الجن حقيقة واقعة - بنص كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ - فيبقى العديد من التساؤلات (القديمة والمتجددة) في حاجة إلى إجابة مرضية أو مقنعة ...

ومن هذه التساؤلات :

كيف يوسوس الشيطان للإنسان ؟ وما الصور والأشكال التي يتشكل الجن بها ؟ وأين مساكنهم ؟ وهل يتلبس ببدن الإنسان في ضوء الحديث الصحيح :

«إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» [1] ونحوه ؟ أم لا يتلبس به ، كما يفهم من قوله تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ومن نفيه ﷺ أن يتمثل الشيطان به ، فضلاً عن اختلاف خلق كل منهما ؟ وهل ثمة وجه شبه بين مَظَاهر تلبس الجن عند القائلين به ، وبين الأمراض النفسية التي تَوَصَّل إليها وحَدّد ملامحها العلمُ الحديث ؟ .. لا سيما وأن أحد أسباب النزاع أو الخلاف حول موضوع التلبس هو عدم وضوح العلاقة بين النفس والجسد . كما أن الأدلة الواردة في هذا الموضوع لا تقطع بصحة القول بإثباته أو نفيه ؛ ذلك أن ما كان منها صحيحا فهو غير صريح في ترجيح أحد القولين ، وما كان صريحًا فغالبه غير صحيح .. بل إن كثيرًا مما نراه من حالات الصرع أو التلبس يمكن أن تكون أمراضًا نفسية أو عقلية أو جسمية ، والعكس .

وهذه الدراسة - في أصلها - محاولة متواضعة للإجابة عن تلك التساؤلات وغيرها ، بهدف كشف طرف من غموض مسألة التلبس بِشِقَّيْهَا .. مع الأخذ بعين الاعتبار طبيعة المعصية التي استوجبت هذه العقوبة القاسية ، بل المخيفة ..

وقد آثرت أن تقع هذه الدراسة في فصلين :

(الأول) في تفسير قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ .

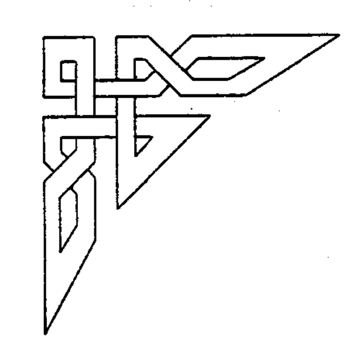
(الثاني) حول قضية تلبس الجن بالإنسان بين الإثبات والنفي .

وتحت كل فصل طائفة من المباحث والفروع ، حسب ما تقتضيه الدراسة في كل منهما . والله أسأل أن يعين على إتمامه ، وأن ينفع به ، وأن يَقِيَنَا جميعًا من ﴿شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ إنه على ما يشاء قدير ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

المؤلف

---

(١) رواه البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده .



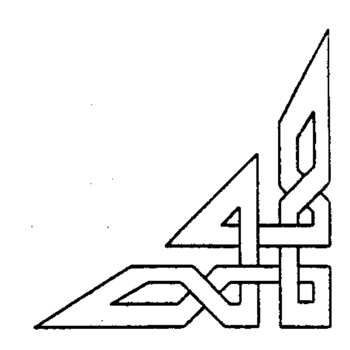
الفصل الأول

حول قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾

وتحته المباحث التالية :

- مفهوم الربا ، وأنواعه .
- أدلة تحريم الربا .
- أضرار الربا .
- تفسير قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ .
- معنى قوله تعالى : ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ .





المبحث الأول
مفهوم الربا ، وأنواعه

لفظ الربا - في اللغة - معناه الزيادة على أي شيء أو الإضافة إلى شيء ، يقال : ربا الشيء يربو ، إذا زاد . وربا فلان الرابية ، أي علاها ، والربوة ما ارتفع من الأرض [1] .

والقرآن الكريم - وقد نزل بلغة العرب - وكذا الحديث النبوي الشريف قد استعملا هذا المعنى اللغوي للفظ الربا ؛ من ذلك قوله تعالى : ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [2] أي يزيدها . وقوله : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ أي ليزيد في أموال الناس : فلا يزيد عند الله .. فمن أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدي لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله ، كما أنه ليس الطريق للنماء الحقيقي ، أو للنماء الطيب الكريم [3] .. وأيضًا قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [4] أي (زادت) وانتفخت لما يتداخلها من الماء والنبات [5] .

---

(١) جاء في لسان العرب : لابن منظور - مادة : ربا - ربا الشيء يربو ربوا ورباء إذا زاد ونما .. وجاء في المعجم الوسيط الربا : الفضل والزيادة . وفي الشرع : فضلٌ خالٍ عن عوضٍ شُرِطَ لأحد المتعاقدين . وفي علم الاقتصاد : المبلغ يؤديه المقترض زيادة على ما اقترضه تبعًا لشروط خاصة . ويلاحظ أن هذا التعريف - الأخير - لم يتناول (ربا البيوع) وهو الذي لم يكن أساسه الدين بل أساسه العقود نفسها . وقد جاءت به السنة وحدها ، وأجمع الفقهاء على تحريمه ، وإن اختلفوا في التفاصيل ، أو في بعض أحكامه ، كالعلة ، وقصره على الأصناف الستة .

(٢) من الآية : ٢٧٦ البقرة .

(٣) اقرأ الآية ٣٩ من سورة الروم ، وما أورده الحافظ ابن كثير - على سبيل المثال - من أقوال الصحابة والتابعين في تفسيرها أو المقصود بها . وإن كان نصها - بإطلاقه - يشمل جميع المسائل التي يريد بها أصحابها أن تنمو أموالهم بطريقة ربوية في أي شكل من الأشكال . (تفسير آيات الربا : لسيد قطب ص ٦٥ طبع دار الشروق) .

(٤) من الآية : ٢٩ فصلت .

(٥) المعجم الوسيط .

وفي الحديث النبوي من هذا الاستعمال اللغوي - للفظ (الربا) - الشيء الكثير ؛ ففي الصحيحين من طريق أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «ما تصدق أحدَ بصدقة من طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - إلا أخذها الرحمن بيمينه ، وإن كانت تمرة ، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل» .. هذا لفظ مسلم في صحيحه [1] ؛ وقريب منه في صحيح البخاري [2] . وحسبي ما ذكرت .. على أن في القرآن والسنة نحوه الشيء الكثير .

والفقهاء - أيضًا - لاحظوا تلك الدلالة اللغوية لكلمة (الربا) ؛ فجاءت تعريفاتهم - في جملتها - متضمنة معنى الزيادة أو الفضل ، وذلك على الرغم من وجود أكثر من تعريف للربا في اصطلاح الفقهاء ؛ بسبب اختلاف وجهات نظرهم في العلة الجامعة في بعض أنواع الربا ، واعتبار البعض منهم أوصافًا غير مؤثرة في الحكم ، ومحاولة استيعاب جميع المعاني الاصطلاحية للربا لتكون التعاريف جامعة لها . ولأن الربا يدخل في تكييفه عنصران :

أحدهما : زمني ، وهو تأخير السداد لما في الذمة نظير زيادة عن هذا التأخير أو الأجل الممدود .. ويسمى هذا النوع (ربا النسيئة) كما يسمى ربا الجاهلية ، وربا القرض ، وربا القرآن ، والربا الجلي ..

والعنصر الثاني : الزيادة التي قد تستقل عن التأخير ، فتسمى (ربا الفضل) - كما يسمى ربا البيوع ، وربا السُّنة ، والربا الخفي - لذا كان هناك ربا النسيئة - ويغلب في الديون - وهو ما ذكر في القرآن صراحة وإن كان لا يخلو من عنصر الزيادة . كما كان هناك ربا الفضل ، وهو الذي جاءت به السنة أو بينته ، وهو قد يستقل عن التأخير ، وقد يأتي مصاحبًا له ..

---

(١) كتاب الزكاة . باب : بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف . وراجع : شرح النووي عليه .

(٢) كتاب الزكاة . باب : لا يقبل الله صدقة من غلول ، ولا يقبل إلا من كسب طيب .

أقول : لعل هذا كله يفسر وجود اتجاهات متعددة لذكر تعاريف متخصصة لكل من ربا النسيئة وربا الفضل ، بل لقد وجدنا من يطلق الربا على (كل بيع محرم) - ذكر ذلك الصنعاني والشوكاني وسيد قطب - ومن يُطْلقه على (الفضل الخالي عن العوض) - ذكره ابن عابدين - وهذا تعريف غير جامع ولا مانع ؛ فالفضل الذي لا يقابله عوض إذا لم يشترط ولم يكن معروفًا لم يكن ربًا ، بل قد يكون من حسن القضاء . ولأن الربا قد يكون موجودًا بدون زيادة كما في بيع الشيء بجنسه متماثلاً ولكن نسيئة (١) .

ويمكن القول بأن التعريف السائد في كتب الفقه لتعريف الربا شرعًا : أنه فضلُ مالٍ مشروط - غالبًا - بلا عوض في معاوضة مال بمال . أو هو : الفضل الخالي عن العوض المشروط غالبًا في القرض والسلف ، أو الزيادة على الدَّين مقابل الأجل أو الانتظار ، سواء تم الاتفاق على هذه الزيادة عند بداية التعاقد أو عند العجز عن السداد ، ومن الربا أيضًا بيع جنس ربوي بآخر بالفضل أو النسيئة .

وإنما قلت : «غالبًا» ؛ لأنه يغلب أن تكون هذه الزيادة مشروطة في صلب العقد أو معروفة للمتعاقدين عند إبرامه . ومعلوم أن المعروف عرفًا كالمشروط شرطًا . وحاصل القول أن تحقق ماهية الربا لا يتوقف على أن تكون الزيادة المالية مشروطة في صلب العقد ، فإن هذه الزيادة تعد من الربا سواء اشْتُرِطَتْ في العقد أم لم تُشترط (٢) .

***

---

(١) راجع : سبل السلام : (٣/٣٦) ونيل الأوطار : (٥/٢٩٦) وحاشية ابن عابدين : (٤/١٩٧).
(٢) انظر : حاشية ابن عابدين : الموضع نفسه ، روح المعاني : للألوسي : (٣/٤٨) وتحريم الربا تنظيم اقتصادي : لأبي زهرة : ص (٢٢) .

أنواع الربا

النوع الأول : ربا النسيئة :

وهو لا يعدو أن يكون (زيادة الدَّين نظير الأجل) أو (زيادة في المال المستحق مقابل أجل ممدود) .. فكل زيادة - مهما قَلَّتْ - على أصل رأس المال مقابل الأجل أو الانتظار تكون ربا ؛ لقوله عز وجل : ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ فهذا النص القرآني قد حرم ربا الجاهلية - أو ربا النسيئة - بكل مقاديره وأسبابه تحريمًا قاطعًا لا شك فيه . فكل زيادة على رأس المال حرام ، مهما تكن الأسباب الباعثة على الاستدانة ، ومهما تكن مقاديرها [١] .

ولقد روى الإمام مالك - في الموطأ - عن زيد بن أسلم أنه قال : كان الربا في الجاهلية أن يكون للرجل على الرجل الحقُّ إلى أجل ، فإذا حل الأجل ، قال : أتقضي أم تُربي ؟ فإن قضى أخذ ، وإلا زاده في حقه ، وأخر عنه في الأجل [٢] . وسئل الإمام أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - عن الربا الذي لا شك فيه ؟ فقال : هو أن يكون له دين ، فيقول : أتقضي ، أم تربي ؟ فإن لم يقضه زاده هذا في المال ، وزاده هذا في الأجل [٣] .

على أن النص القرآني المذكور لم يفرق في الحكم - كما يقول أستاذنا الدكتور محمد بلتاجي (بحق) -: بين أن يكون هذا متفقًا عليه من أول المعاملة ، أو مستحدثًا عند عجز المدين عن الدفع ، أو عدم رغبته في ذلك لأمرما يراعيه [٤] .. ومن هنا نفهم مغزى دعوة الله عز وجل إلى التوبة من الإثم والخطيئة ، والمنهج الوثني في تنمية الأموال بالربا ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ فهي التوبة

---

(١) المصدر الثاني السابق : ص ٢٠ وراجع أيضًا : تفسير القرطبي : (٣/٣٦٥) .

(٢) الموطأ : كتاب البيوع . باب : ما جاء في الربا في الدين .

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين : لابن القيم : (٢/٩٩) ، وتفسير المنار : (٣/٩٦) .

(٤) عقود التأمين ... ص (٣٩) .

عن خطيئة ؛ إنها خطيئة الجاهلية ، التي لا تتعلق بزمان دون زمان ، ولا نظام دون نظام . وإنما هي الانحراف عن شريعة الله ومنهجه ، ومتى كان وحيث كان ؛ خطيئة تنشئ آثارها في مشاعر الأفراد وفي أخلاقهم بل في الحياة البشرية كلها ، وفي نموها الاقتصادي ذاته ، ولو حسب المخدوعون بدعاية المرابين أنها وحدها الأساس الصالح للنمو الاقتصادي [١] .

بقي أن أشير أيضًا إلى أن هذا النوع من الربا يطلق عليه كذلك - عند بعض الفقهاء - ربا القرآن ؛ بمعنى أن آيات القرآن الكريم ألصقُ به أو بتحريمه . في مقابل ربا السنة أو ربا البيوع [٢] - وهو النوع الثاني الآتي - كما يسمى الربا الجلي : لأن الربا المحرم واضح فيه ويقابله (الربا الخفي) - وهو ربا الفضل أو ربا السنة ، الذي حُرِّم لأنه ذريعة إلى الجلي ، فتحريم الأول قصدًا ، وتحريم الثاني وسيلة كما يقول ابن القيم [٣] .

مراحل تحريم الربا في الإسلام :

لما كان الربا من العادات الراسخة والمعاملات الشائعة والمتعارف عليها بين الناس عند ظهور الإسلام وكان تحريمه - حينئذ - دفعة واحدة مما يهز الحياة الاقتصادية ، ويحيق الضرر بمعظمهم ؛ فقد تدرج الإسلام في تحريمه للربا على نحو ما صنع في تحريمه الخمر ، تمشيًا مع أسلوبه في محاربة العادات الضارة والأخلاق السيئة ، وتقويم أي انحراف للمجتمع عن الصراط المستقيم .

ومن هنا جاء تحريم الربا - في القرآن الكريم - على أربع مراحل مترتبة متصاعدة حتى يصل إلى استئصال شأفة الربا من المعاملات المالية . وهذه المراحل

---

(١) راجع تفسير آيات الربا : لسيد قطب ص (٤١- ٤٢) وتنمية الموارد المالية في الشريعة الإسلامية : (٢٥٢ - ٢٥٤) ومصادرها .

(٢) وراجع مثلاً : تحريم الربا تنظيم اقتصادي : (٢٢-٢٥) والإسلام والاقتصاد للدكتور عبد الهادي النجار : ١٠٢ .

(٣) إعلام الموقعين : (٩٩/٢ ، ١٠٠) .

نجملها فيما يلي :

المرحلة الأولى : وفيها بدأ القرآن بتمهيد الأذهان وتهيئة النفوس إلى ما سيكون من تحريم الربا ؛ حيث نزل قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عِندَ اللهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ (١) . ففي هذه الآية الكريمة مقارنة بين من يأخذ مال المحتاجين (خاصة) بلا مقابل ، وبين من يعطيهم بلا مقابل ! .

المرحلة الثانية : وفيها ينكر الله تعالى على بني إسرائيل - أو اليهود - بعض الأشياء ، ومن بينها أكل الربا . وأنه بسبب هذه المنكرات - الواردة في السياق - حرمت عليهم طيبات كانت حلالاً لهم ، كما أعد الله للكافرين منهم عذابًا أليمًا ؛ يقول الله تعالى في هذا الشأن : ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٢) .

المرحلة الثالثة : وفيها أول خطاب مباشر للمؤمنين بشأن الربا ؛ حيث توجه الله تعالى إليهم بالنهي مباشرة عن نوع الربا الفاحش الذي كان شائعًا أو معهودًا في المجتمع العربي آنذاك ، وحذرهم منه أشد التحذير ، فأنذرهم بالنار التي أعدت للكافرين .. يقول عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٣) .

ومن ثم يكون القرآن قد بدأ في التحريم بالربا الفاحش - الذي تصبح فيه الزيادة أضعافَ أضعافِ رأس المال المقترض أو الحق الثابت - مؤكدًا على شناعة هذا الفعل وقبحه (٤) .

---

(١) الروم/٣٩ وانظر : تفسير ابن كثير : (٥٨٤/١) وتفسير آيات الربا : لسيد قطب (٦١ -٦٢) .

(٢) الآيتان (١٦٠ ، ١٦١) من سورة النساء . (٣) الآيتان : (١٣٠ ، ١٣١) آل عمران .

(٤) انظر مثلاً : تفسير الطبري : (٥٩/٤) ، وتفسير القرطبي : (٢٠٢/٤) ، والتعامل التجاري في ميزان الشريعة : للدكتور يوسف قاسم : ص (١٠٧) .

على أن الوصف المذكور هنا ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ ليس لتقييد النهي ، بل لمراعاة عاداتهم ، ويكون حكم الربا القاطع ثابتًا بلا تحديد ولا تقييد في أي نظام ربوي مقيت ، وأيًا كان سعر الفائدة ، أو مقدار الزيادة على رأس المال .

وتدل الآية التي معنا على أن العمليات الربوية ليست مفردة ولا بسيطة ؛ فهي عمليات متكررة من ناحية ، ومركبة من ناحية أخرى ، وهي تنشئ مع الزمن والتكرار والتركيب أضعافًا مضاعفة بلا جدال .

إن النظام الربوي يحقق - بطبيعته - دائمًا هذا الوصف ، فليس هو مقصورًا على العمليات التي كانت متبعة في جزيرة العرب ، وإنما هو وصف ملازم للنظام في كل زمان [1] .

بقي أن أشير إلى أن أولئك الذين فهموا - خطأ - أن الوصف المذكور في الآية ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ لبيان الحالة الواحدة التي يحرم فيها الربا ، وأن ما عداها - مما لم يكن أضعافًا مضاعفة - فليس من الربا المحرم - هذا الفهم الخطأ أتى من استدلالهم بدليل الخطاب أو مفهوم المخالفة ، والمقصود به - عند القائلين به - أن يُحكم للمسكوت عنه بخلاف المنصوص عليه . أو هو دلالة تخصيص الشيء بالذكر والصفة ونفيه عما عداه [2] . والاستدلال به موضع خلاف بين الأصوليين والفقهاء ، وحتى أولئك الذين يحتجون به لا يعتمدون على كل أنواعه ، وما يقبلونه

---

(١) راجع : تفسير آيات الربا : ص (٤٩ - ٥٠) ، وأيضًا : تفسير ابن كثير : (٤٠٤/١) ، وبنوك بلا فوائد : للدكتور عيسى عبده ص (١١٥) وما بعدها ، الطبعة الثانية (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م) . دار الاعتصام - القاهرة .

(٢) من الباحثين المعاصرين من قرر : (أنه لو صح الأخذ بهذا المفهوم لكان معنى ذلك أن الربا لا يحرم إلا إذا بلغ ٦٠٠٪ على الأقل ! (راجع : مجلة البنوك الإسلامية - العدد ٢٤ ص ٤٥ ومصادرها) . ولقد وصل سعر الفائدة بالفعل - في بعض دول العالم - في بعض العمليات الربوية إلى ٣٥٠ ٪ ، ٤٠٠ ٪ ، ٤٨٠ ٪ بل تراوح أحيانًا من ١٢٠٠ إلى ١٣٠٠ ٪ راجع : موسوعة البنوك الإسلامية : (٥٧٢/ ٣/٥) ومصادرها .

منه يجعلونه مراتب من حيث توهم النفي والإثبات ، ومن حيث إطلاق الاحتجاج به وتقييده [١] .

المرحلة الرابعة والأخيرة لتحريم الربا : وفيها قرر الله تعالى - في وضوح - النهي عن بقية أنواع الربا ، بعد أن حرم قبل ذلك النوع الذي كان شائعًا نحوه ، وبذلك يكون الربا كله - كثيرًا وقليلاً - قد صار حرامًا ، وأنَّ مَن لم يدع الربا بأنواعه كلها - بعد هذا النهي - فليس مؤمنًا ، بل وليأذن بحرب من الله ورسوله . يقول عز شأنه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ [٢] أي لا تَظلمون بأكل الربا ، ولا تُظلمون بإنقاص رأس المال - أيّ رأسمال - نقديًا كان أو عينيًا ، إنتاجيًا كان أو استهلاكيًا ، بمقتضى إطلاق قول الله تعالى : ﴿فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ دون تحديد أو تمييز لرأسمال عن آخر [٣] .. ولذلك استدل بعض العلماء - بهذه الآية - على أنه يجب على ولي الأمر أن يحارب المرابين . كما حكى القرطبي عن بعض العلماء أيضًا قولهم : لو أن أهل بلد اصطلحوا على الربا استحلالا كانوا مرتدين ، وإن لم يكن ذلك منهم استحلالا جاز للإمام محاربتهم [٤] .

---

(١) انظر : تعقيبي على هذا الفهم للآية الكريمة في رسالتي للدكتوراه (تنمية الموارد المالية في الشريعة الإسلامية) : (٢٥٧ - ٢٥٩) ومصادرها .

(٢) الآيتان (٢٧٨ ، ٢٧٩) البقرة .

(٣) انظر : الاقتصاد الإسلامي مذهبًا ونظامًا : للدكتور الطحاوي : (٣١٢/١) ويقول محمد باقر الصدر : والجملة القرآنية الأخيرة التي تحصر حق الدائن في رأس المال الذي أقرضه ، ولا تسمح له - إذا تاب - إلا باسترجاع ماله الأصيل ، دليل واضح على المنع من القرض بفائدة ، وتحريم الفائدة بمختلف ألوانها مهما كانت تافهة أو ضئيلة ، لأنها تعتبر على أي حال ظلمًا في المفهوم القرآني من الدائن للمدين . وفقهاء الإمامية متفقون جميعًا على هذا الحكم كما يظهر من مراجعة جميع مصادرهم الفقهية . اقتصادنا : ص (٦٠٤) .

(٤) راجع : تفسير القرطبي : (٣٦٥/٣) ، وأيضًا : تفسير ابن كثير : (٣٣٠/١) ، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية : (٢٣٣) والتعامل التجاري في ميزان الشريعة : (١١٠) وهامشها .

النوع الثاني من الربا : ربا الفضل أو ربا البيوع :

والمقصود به بيع المتماثلين نسيئة أو بزيادة أحدهما على الآخر . أو هو أن يبيع الرجل الشيء بالشيء من نوعه بزيادة أو بالأجل . كمن يبيع مكيالاً من القمح - مثلاً - بمكيال ونصف منه أو بمكيال مؤجل . وتحريم هذا النوع من الربا - الثابت أو المبين بالسنة (١) - إنما هو من باب سد الذرائع أعني حتى لا يؤدي التفاضل - بين الشيئين اللذين هما من جنس واحد - إلى أي عملية فيها شبهة الربا (وهو الزيادة في أحد العوضين المتحدين جنسيا) (٢) ، ولما يصاحبه من مشاعر مشابهة للمشاعر المصاحبة لعملية الربا (٣) .

والذي يهمني بيانه - هنا - أمران :

الأول : ثبت تحريم هذا النوع من الربا بالسنة المطهرة ؛ فقد روى مسلم في صحيحه من طريق أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر،

---

(١) المعروف أن القرآن الكريم قد تصدى للنظام الربوي بالتحريم ، دون أن يتعرض لبيان أنواعه أو مجالاته في المعاملات المالية ، لا إجمالاً ولا تفصيلاً . ولعله اكتفى بالإطار الكلي ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ . وكذلك ببيان رسول الله ﷺ وحكمته في علاج عقلية الربا ، التي كانت سائدة في الجاهلية ، سواء في ذلك ربا الديون أو ربا الحق السائد ، أم ربا البيوع وربا الفضل . ومن ثم فلا خلاف بين أحد من المسلمين في أن الربا محرم ، وإن كان اختلاف - فقط - في المعاملات التي ينطبق عليها وصف الربا المحرم ؛ نتيجة لأن الحديث - وهو يتولى الإبانة عما جاء في القرآن - جاء على نحو يدعو للاجتهاد ، واختلاف وجهات النظر ، فكان تعدد الاجتهادات والاتجاهات في الفقه الإسلامي بالنسبة لما يتعلق بالربا المحرم ، وأنواعه . (وراجع : الاقتصاد الإسلامي مذهبًا ونظامًا : (٣٠٤/١ ، ٣٠٥) .

هذا فضلاً عن أن ربا الفضل أو ربا البيوع قد ثبت تحريمه بحديث آحاد ، وتعدد طرقه لم يخرجه من أنه آحاد ، ولم يرفعه إلى درجة التواتر أو الشهرة .. وإن كان الفقيه أبو محمد ابن حزم يعده من الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ . (انظر : المحلى : (٤٩٠/٨) .

(٢) التعامل التجاري في ميزان الشريعة : ص (١١٥) .

(٣) تفسير آيات الربا : ص (٢٣) .

والملح بالملح مثلاً بمثل ، يدًا بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى ، الآخذ والمعطي فيه سواء» وأخرج مثله من طريق عبادة بن الصامت وأبي هريرة - رضي الله عنهما - مع اختلاف يسير في اللفظ (١) .

وفي بعض طرقه - بعد قوله ﷺ : «مثلاً بمثل ، يدًا بيد ، والفضل ربا» يقول عليه السلام في نهاية الحديث - : «فإذا اختلفت الأصناف فبيعوا كيف شئتم» (٢) .

وأخرج الشيخان من طريق أبي سعيد وأبي هريرة (رضي الله عنهما) أن رسول الله ﷺ استعمل رجلا على خيبر ، فجاءه بتمر جنيب (نوع من التمر الجيد . وقيل : هو ما أُخرج منه حَشَفُه ورديئه) (٣) ، فقال له رسول الله ﷺ : «أَكُلُّ تمرِ خيبر هكذا ؟» فقال : لا ، والله يا رسول الله . إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين ، والصاعين بثلاثة . فقال رسول الله ﷺ : «فلا تفعل ، بع الجمع (وهو تمر رديء ، أو خليط من التمر (٤)) بالدراهم ، ثم ابتَعْ بالدراهم جنيبًا» (٥) أي بع التمر الرديء بالنقد ، ثم اشترِ بهذه النقود تمرًا آخر .

فرسول الله ﷺ يشترط في مبادلة سلعة بسلعة - من جنس أو نوع واحد - التماثل أو المساواة ، كيلاً ووزنًا ، والتقابض في مجلس العقد ، وهو المراد بقوله عليه السلام : «مثلاً بمثل ، سواء بسواء ، يدًا بيد» أو بيع السلعة المراد استبدالها بالنقد ثم شراء السلعة المطلوبة بالنقد أيضًا ..

---

(١) صحيح مسلم : كتاب المساقاة والمزارعة . باب الصرف وبيع الذهب بالورق .

(٢) يقول شمس الدين السرخسي (ت ٤٩٠) - بعد أن نقل هذا الحديث برواية أبي سعيد الخدري - : وهذا حديث مشهور تلقته العلماء بالقبول والعمل به ... ومثله حجة في الأحكام تجوز به الزيادة على الكتاب عندنا . المبسوط : (١١٠/١٢) مطبعة السعادة بمصر .

(٣) ، (٤) انظر مثلاً : المعجم الوسيط (مادتي : جنب ، جمع) ، ونيل الأوطار : (١٩٥/٥) .

(٥) صحيح مسلم : كتاب المساقاة والمزارعة . باب : بيع الطعام مثلاً بمثل (واللفظ له) . وصحيح البخاري : كتاب البيوع . باب : إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه . وتجده - أيضًا - في كتاب الوكالة . باب : الوكالة في الصرف والميزان .

إلى هذا الحد بلغت حساسية الرسول الأعظم ﷺ بشبح الربا في أية عملية ، وبلغت كذلك حكمته في علاج عقلية الربا التي كانت سائدة في الجاهلية [١] . لدرجة أنه إذا كان ولابد من عملية المقايضة - والحال أن السلعتين متحدتان جنسًا أو نوعًا - فإنه لا مناص حينئذ من الرجوع إلى القاعدة الثابتة المضمونة ، وهي التقدير بالنقود ، ثم يشتري الشخص بهذه النقود ما يريد . ولا ضرورة مطلقًا إلى المقايضة ، لأنها عين الربا كما قال عليه السلام [٢] .

وحتى لو لم يَبْدُ في هذه المعاملة شبح الربا ، فقد ورد فيها أحاديث تكاد تبلغ حد التواتر ، وجمهور الصحابة والفقهاء أثبتوا هذا النوع من الربا - فينبغي القول والإفتاء والتسليم بأن مبادلة الربوي بجنسه - متقابضين في المجلس - مع الزيادة في أحد البدلين على الآخر عملية ربوية حرام .

ومن جهة أخرى : فليست كل الحِكَم الشرعية مدركة في العقول ؛ فكثيرًا ما نجد الحكم في مسائل جاريًا على أصل مشروعيتها ، والحكمة غير موجودة ! [٣] .

الأمر الثاني : بعد أن اتفق جمهور الفقهاء على تحريم التفاضل والنسأ في الصنف الواحد من الأصناف الستة (الذهب ، والفضة ، والبر ، والشعير ، والتمر ، والملح) المذكورة في الأحاديث السابقة [٤] . وعلى امتناع النسأ - فقط - فيما إذا اتحد الجنس واختلف الصنف أو النوع كالذهب بالفضة ، والقمح بالشعير [٥] : اختلفوا في تعيين الأموال الربوية فيما عدا تلك الأصناف الستة ؛

---

(١) انظر : تفسير آيات الربا : ص (٢٥) .

(٢) وراجع تنمية الموارد المالية في الشريعة الإسلامية : (٢٦٢ - ٢٦٥) ومصادرها .

(٣) راجع تقرير الشاطبي لهذه القضية : (هل تدرك الحكمة المشروع لها السبب ؟) في : الموافقات : (١٧٦/١ وما بعدها) .

(٤) هذا بالطبع خلافًا لما نسب إلى جماعة من فقهاء الصحابة والتابعين من أنهم يرون الربا المحرم في النسيئة فقط ، فيجوز - في نظرهم - بيع درهمين بدرهم يدًا بيد . وانظر مثلاً : الموافقات : (٩٦/٤) ، ونيل الأوطار : (١٩١/٥ ، ١٩٢) .

(٥) وراجع - على سبيل المثال - المحلى : (٤٦٨/٨ ، ٤٨٩) وما بعدها . وبداية .... =

بمعنى : هل حكم الربا قاصر على هذه الأصناف الستة لمعنى فيها لا يوجد في غيرها ، فتكون الربويات مذكورة في الحديث على سبيل الحصر ؛ ومن ثم لا يتعداها إلى ذلك الغير ؟ أم أنه لِمَعْنًى يوجد فيها وفي غيرها ، فتكون موجودة في الحديث على سبيل المثال ؛ ومن ثم يتعداها إلى كل ما وُجِدَ فيه هذا المعنى ؛ دورانا للحكم مع علته وجودًا وعدمًا ؟ .

***

= المجتهد : (٢/١٦٢ ، ١٦٣) وشرح النووي على مسلم (أول باب الربا : من كتاب المساقاة والمزارعة) ، وإعلام الموقعين : (٢/١٠٠) ، ونيل الأوطار : (٥/١٩٤) ، وتنمية الموارد المالية في الشريعة الإسلامية : (٢٦٦ وما بعدها) .

المبحث الثاني
أدلة تحريم الربا

ثبتت حرمة الربا بأدلة قاطعة في الكتاب والسنة ، فضلاً عن إجماع الأمة وإن حدث اختلاف في بعض صوره وأحكامه . وحسبي أن أذكر طرفًا من تلك الأدلة فيما يلي [١] :

أ - من القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ اللهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ [٢] .

فقد تضمنت هذه الآيات حكم كل من الربا والبيع ، والوعيد لمن استحل الربا وأصر على فعله . بل لقد دلت الآية الأخيرة - وحدها - على أن أكل الربا والعمل به من الكبائر ، ولا خلاف في ذلك [٣] .

ومن ثم ، فإن كل عملية ربوية حرامٌ ، سواء جاءت في الصور التي عرفتها الجاهلية أم استُحدِثَت لها أشكالٌ جديدة ، ما دامت تتضمن العناصر الأساسية

---

(١) يضاف إليها ما أوردته - في المبحث السابق - من نصوص القرآن والسنة عن أنواع الربا ومراحل تحريمه ..

(٢) الآيات : (٢٧٥ - ٢٧٩) البقرة .

(٣) راجع مثلاً : تفسير القرطبي : (٣/٣٦٣ - ٣٦٤) .

للعملية الربوية ، أو تتسم بسمة العقلية الربوية . وهي عقلية الأثرة والجشع والفردية والمقامرة . وما دام يتلبس بها ذلك الشعور الخبيث ، شعور الحصول على الربح بأي وسيلة ! فينبغي أن نعرف هذه الحقيقة جيدًا ونستيقن من الحرب المعلنة من الله ورسوله على المجتمع الربوي [١] .

ب - من السنة المطهرة ، وردت أحاديث كثيرة في النهي عن الربا ، وصوره . وكلها تبين أن الربا من الكبائر ، ومن الجرائم الموبقات المهلكات ، وأن اللعنة تلحق من يأكل الربا ومن يُطْعِمُه غيرَه ، ومن يكتبه ومن يشهد عليه . وقد جمع الحافظ المنذري [٢] نحو ثلاثين حديثًا في الترهيب من الربا ، وفي الكبائر للحافظ الذهبي طرف منها [٣] ؛ منها ما رواه الشيخان وغيرهما أن الرسول ﷺ ، قال : «اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» [٤] .

وما رواه مسلم وغيره عن جابر رضي الله عنه ، قال : «لعن رسول الله آكل الربا ، وموكله ، وكاتبه ، وشاهديه . وقال : «هم سواء» [٥] .

وفي البخاري قوله ﷺ : «ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال من حلال أم من حرام» [٦] .

وما رواه ابن ماجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ ، قال : «الربا ثلاثة وسبعون بابًا : أيسرها - وفي لفظ : أهونها - مثل أن ينكح

---

(١) في ظلال القرآن : (٣٢٥/٣) . (٢) الترغيب والترهيب : (٣/٣-١٤) .

(٣) الكبائر : (٤٧ - ٤٩) طبعة دار المسلم . وراجع أيضًا تفسير القرطبي : (٣٦٤/٣ ، ٣٦٥) .

(٤) رواه البخاري ، كتاب الحدود ، باب رمي المحصنات .

ورواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الكبائر وأكبرها .

(٥) رواه مسلم ، كتاب المساقاة ، باب لعن آكل الربا وموكله .

(٦) رواه البخاري ، كتاب البيوع ، باب قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا﴾ .

الرجلُ أمَّه» . وغير ذلك كثير [١] .

ج - أما الإجماع [٢] فيكفينا منه أن نقرر إجماع الأمة على حرمة الربا وإن اختلفوا في بعض مسائله كالعلة ، والقياس على الأصناف الستة المذكورة في الحديث ، والبيعتين في بيعة .

***

(١) رواه ابن ماجه ، كتاب التجارات ، باب التغليظ في الربا .
(٢) انظر مثلاً : تفسير القرطبي : (٣٤٨/٣) .

المبحث الثالث
أضرار الربا

نحن على يقين من أن تحريم الربا في ذاته قائم ، وأن الله عز شأنه ما حرم شيئًا إلا لما فيه من مضار ، وما أباح شيئًا إلا وفيه مصلحة لعباده ، حتى لو خفيت علينا بعض هذه وتلك ؛ لأن عقولنا البشرية غالبًا ما تقصر عن إدراك الحكمة من بعض التشريعات أو التكاليف الشرعية .

فَلْنُسَلِّمْ بأن الله لا يريد لعباده إلا الخير ، ولم يشرع لهم إلا ما فيه مصلحتهم ، ومع ذلك فلا بأس من محاولة الاهتداء إلى بعض الحكم والأسرار من تحريم الربا ، بعد أن أصبح من الحقائق التي لا تخفى على أهل الاختصاص - سواء من حيث الواقع العملي الاجتماعي والاقتصادي ، أو التقريرات العلمية ، أو الفكر السياسي - أن الفائدة العائدة لرأس المال ذات مضار عديدة وآثارها خطيرة على كيان الأمم والشعوب وأن هذه المضار تشمل سائر نواحي الحياة من اجتماعية وسياسية واقتصادية ، وإن كانت مضارها الاقتصادية أكثر وضوحًا من غيرها في العصر الحديث ؛ ومن ثم سنشير إلى أهمها هنا ، وإلى طائفة من المضار الاجتماعية للفائدة . على أن يكون موضوعًا في الاعتبار أن تلك المضار بأنواعها هي ذات مضار الربا المحرم شرعًا .

أولاً : المضار الاقتصادية للفائدة (١) :

١- إقامة العلاقة بين رأس المال وعناصر الإنتاج المختلفة على الأثرة والعداوة ، لا على التعاون والتساند . يقول سيد قطب : «إن النظام الربوي

(١) وراجع على سبيل المثال : إحياء علوم الدين : (٩١/٤ - ٩٢) ، وإعلام الموقعين : (٩٩/٢ - ١٠١) ، والربا : للمودودي : (٥٠ - ٥٤) ، وتفسير آيات الربا : لسيد قطب : (ص ١٤ وما بعدها) .

معيب من الوجهة الاقتصادية البحتة .. وقد بلغ من سوئه أن جميع المال في الأرض صائر إلى عدد قليل جدًا من المرابين . ذلك أن الدائن المرابي يربح دائمًا في كل عملية ، بينما المدين معرض للربح والخسارة ، ومن ثم فإن المال كله في النهاية لا بد - بالحساب الرياضي - أن يصير إلى الذي يربح دائمًا» [١] ! .

٢- جميع المستهلكين يؤدون ضريبة غير مباشرة للمرابين ؛ فإن أصحاب الصناعات والتجار لا يدفعون فائدة الأموال التي يقترضونها بالربا إلا من جيوب المستهلكين ؛ حيث يضيف المنتجون الفائدةَ الربوية التي يقدمونها للمرابين إلى أسعار السلع ، مما يؤدي في النهاية إلى أن يتحمل سوادُ الناس المحتاجون لهذه السلع عبء الربا .

٣- أنه لما كان الدائن المرابي يربح دائمًا في كل عملية ، بينما المدين المقترض معرض للربح والخسارة فإن الحسابات الرياضية - كما أشرنا - تقطع بأن تيار المال لا بد صائر في النهاية إلى الذي يربح دائمًا .. ومن ثم فإن الربا يعمل على تحويل مجرى الثروة وتوجيهها إلى جهة واحدة هي أصحاب رءوس الأموال ، ويؤدي ذلك إلى نتيجتين :

أولاهما : تجميع الثروة وتكديس الأرباح لدى الأغنياء ، ومن يملكون رءوس الأموال ، مما ينتج عنه التفاوت المالي الصارخ بين الأغنياء والفقراء ، وغير ذلك من مظاهر الشذوذ المالي وتبعاته .

وثانيهما : أن هؤلاء الذين يتركز في يدهم الجانب الأكبر من المال المتداول في المجتمع تصبح لهم السيطرة الفعلية على اقتصاد الأمة وأوجه النشاط الاقتصادي المختلفة [٢] .

٤- المعروف أن العملية الإنتاجية تقوم أساسًا على عنصرين : المال

---

(١) تفسير آيات الربا : ص (١٤ - ١٥) .

(٢) راجع أيضًا : في ظلال القرآن : (٣/٣٢١) .

والعمل . وموجب ذلك أن يتحمل كل من العنصرين نصيبه من الربح والخسارة ، فإذا أشركنا صاحب المال في الربح وجب أن يشترك في الخسارة المحتملة ، وذلك هو مقتضى الفطرة السوية . غير أن الربا يهدم هذا النظام الطبيعي ويسخر العمل لحساب رأس المال ؛ لأن المنتج هو المدين دائمًا - ويضمن للمرابي رأس ماله ونصيبه من الربح ، دون أن يشارك هذا الأخير في الخسارة النازلة أو المحتملة ! .

٥- وأخيرًا ؛ فإن الربا - أو نظام الفائدة - يمسخ مهمة النقود ، وينحرف بها عن الطبيعة التي خلقها الله - كوسيط للتبادل ومعيار لتقويم الأشياء - إلى الإتجار بها في نفسها واتخاذها سلعةً تُقَوَّم بثمن هو سعر الربا أو الفائدة ، فيقع الضرر معاملات الناس ، ويقع الخلف ويشتد الضرر كما يقول الغزالي وابن القيم وغيرهما [(١)] .

ثانيًا : المضار الاجتماعية لنظام الفائدة (٢) :

تبدو هذه المضار واضحة في الإقراض بفائدة سدًا للحاجات الشخصية الاستهلاكية ، ولذا افتقر المدين إلى إنظاره بزيادة يحتملها في كل أجل يمضي عليه - وهو ما يسمى جدولة الديون - من أسر أو ذل المطالبة بالوفاء . وبوجه عام فإن حكمة تحريم الربا على القرض الاستهلاكي ظاهرة لا تحتاج إلى بيان ، وأن مضار الفائدة من الناحية الاجتماعية تتركز فيما يأتي :

١- أنها تطبع الشخص بطابع الأثرة والأنانية ، والقلق أو الاضطراب ، وتَحَجُّر القلب ، والعبودية للمال ، والطمع والتكالب على المادة . ثم ضعف الهمة وخور العزيمة . فضلاً عن أنها تقطع ما بين الناس من روابط بسبب تعارض مصلحة كل من الأغنياء والفقراء فيصير المجتمع إلى التفكك والتشتت ، وينسحب

---

(١) راجع : إحياء علوم الدين : (٤/٩١ - ٩٢) ، وإعلام الموقعين : (٢/١٠١) .

(٢) راجع على سبيل المثال : الفتاوى الكبرى : (٣/٢٧٥) وإعلام الموقعين : (٢/٩٩) والربا للمودودي : (٤٠-٤٤) ، وتفسير آيات الربا : (١١- ١٤) .

هذا الأمر على العلاقات الدولية بين الدول الغنية والدول الفقيرة .

٢- أن فائدة رأس المال تشجع الأفراد على استغلال أموالهم في الإقراض بفائدة . وهذا يؤدي بالضرورة إلى الاكتناز وجمع الثروة ، ويمنع الناس من التكسب بالحرف وأنواع النشاط الاقتصادي المتعدد ؛ من تجارة وزراعة وصناعة . وفي هذا ما فيه من الأضرار الاجتماعية التي لا تخفى .

٣- الإضرار بالمدين بمضاعفة الدين عليه من غير نفع يعود عليه ؛ فالفائدة أو الربا «استرداد للدين ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه ؛ من جهده إن ربح بالعمل في هذا المال ، ومن لحمه إن كان لم يربح» (١) .

٤- وأخيرًا يلاحظ أن قيام العلاقة بين أصحاب الأموال والمستثمرين على أساس التعامل الربوي - أو بالفائدة - قد أدى إلى حدوث الصراع بينهما ، بدلاً من روح التعاون والتناصر ؛ وهذا هو سبب حدوث الأزمات الاقتصادية للفائدة بين حين وآخر .

ولك بعد هذا أن تتصور شكل المجتمع المتعامل على الأثرة والبخل وتحجر القلب . وروح المجتمع الذي يغتنم فيه القادر ظروف العاجز ليثرى على حسابه ، أو المجتمع الذي تتناقض فيه مصالح الأغنياء مع الفقراء . فكيف لو علمنا أن الربا يوسع الهوة بين الأغنياء والفقراء ، وأنه يشيع الخوف ويعمل على نشر الجريمة وزعزعة العقيدة (٢) .

ولذلك فإن المولى عز وجل لم يهدد أحدًا من المنحرفين والآثمين كما هدد المرابين . بل لا تعدو الحقيقة إن نحن قررنا كثيرًا من الويلات التي يقاسيها الإنسان ترجع - من قريب أو بعيد - إلى هذا الداء العضال ، الذي نرجو الله عز وجل أن

---

(١) المصدر الأخير السابق : ص (٦) .

(٢) راجع في هذا رسالتي للدكتوراه (تنمية الموارد المالية في الشريعة الإسلامية) : (٣٧٧ - ٣٨٢) ومصادرها .

يغني البشرية عنه بالعودة إلى الأسلوب الأمثل والمنهاج الأقوم ، وهو منهج الإسلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه تشريع رب العالمين .

ولعل هذا يناسب أن يكون مدخلاً للكلام عن إحدى صور عقاب الله لمن يأكل الربا في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ .

ليس هذا فحسب ، بل آذنه بحرب من الله ورسوله إن لم يذر كل أنواع الربا .. فلننظر فيما تحمله هذه الآية الكريمة من دلالات مخيفة - في اللفظ والمعنى - عن التكسب بالربا ، ولله الحكمة البالغة !

***

المبحث الرابع
﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾

دارت تفسيرات العلماء للأكل ـ في الآية ـ بمعنى الأخذ ، والتعامل ، وعموم الكسب .. ونحو هذا ، ثم حرص بعضهم على إيجاد شكل من أشكال العلاقة بين المعنى الظاهري للفظ ﴿يَأْكُلُونَ﴾ ، وإيحاءاته الشرعية والنفسية والخلقية في إطار المعاملات الربوية على العموم ، والعقوبة المنصوص عليها في الآية ذاتها بوجه خاص . يقول البغوي ـ في تفسيره المسمى «معالم التنزيل» ـ : قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ أي : الذين يتعاملون به ، وإنما خَصّ الأكل ؛ لأنه معظم المقصود من المال [١] .

وقال القرطبي : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ﴾ بمعنى يأخذون ، فعبر عن الأخذ بالأكل ؛ لأن الأخذ إنما يراد للأكل [٢] .

وقال في موضع آخر : «المراد يكسبون الربا ويفعلونه . وإنما خص الأكل بالذكر ؛ لأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال ؛ ولأنه دال على الجشع وهو أشد الحرص ، يقال : رجل جشع بيّن الجشع ، وقوم جشعون ... فأقيم هذا البعض من توابع الكسب مقام الكسب كله ، فاللباس والسكنى والادخار والإنفاق على العيال داخل في قوله : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ﴾» [٣] .

وفي روح المعاني للألوسي قريب مما ذكره القرطبي ؛ ذلك أن الألوسي قال : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ أي : يأخذونه ، فيعم سائر أنواع الانتفاع ، والتعبير عنه بالأكل لأنه معظم ما قُصد به [٤] .

---

(١) تفسير البغوى : ٢٦١/١ طبعة دار المعرفة - بيروت .
(٢) تفسير القرطبي : ٣٤٨/٣ طبعة دار الكتاب العربي ١٩٦٧ م . (٣) المصدر نفسه : ٣٥٤/٣ .
(٤) روح المعاني : للألوسي : ٤٨/٣ طبعة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

وفي تفسير المنار : «المراد بالأكل : الأخذ لأجل التصرف ، وأكثر مكاسب الناس تنفق في الأكل ، ومن تصرف في شيء من مال غيره يقال : أكله وهضمه ؛ أي أنه تصرف فيه تمام التصرف حتى لا مطمع في رده» [١] .

وهو بذلك يقصد الربا المعهود في الجاهلية ، وقد نقل ما ذكره ابن جرير الطبري - في تفسيره هذه الآية وآية آل عمران - عن كيفية ذلك التعامل الربوي ، أو كيف كان يجري بينهم في جاهليتهم : أن الرجل كان يكون له على الرجل مال إلى أجل ، فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه ، فيقول له الذي عليه : أخر عني دينك وأزيدك على مالك ، فيفعلان ذلك ، فهذا هو الربا أضعافًا مضاعفة ، وثمة وقائع أخرى للجاهلية في النظام الربوي المعروف لهم [٢] .

فإذا أنعمنا النظر فيما قرره الطبري وما نقله عن الأئمة الأعلام في تفسير هذه الآية ، وما يحمله من دلالات ، نراه يقول : يعني بذلك جل ثناؤه : الذين يربون . والإرباء : الزيادة على الشيء ، يقال منه : أربى فلان على فلان ، إذا زاد عليه ، يربي إرباء .

والزيادة هي الربا ، وربا الشيءُ إذا زاد على ما كان عليه فعظم فهو يربو ربوًا . وإنما قيل للرابية [٣] لزيادتها في العظم والإشراف على ما استوى من الأرض مما حولها من قولهم : ربا يربو . ومن ذلك قيل : فلان في ربا قومه ، يراد أنه في رفعة وشرف منهم ، فأصل الربا الإنافة والزيادة ، وإنما قيل للمُرْبي : مُرْبٍ لتضعيفه المال الذي كان له على غريمه حالاً ، أو لزيادته عليه فيه ، لسبب الأجل الذي يؤخره إليه فيزيده إلى أجله الذي كان له قبل حل دينه عليه ، ولذلك قال جل ثناؤه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ وبمثل الذي قلنا في

---

(١) تفسير المنار : ٧٩/٣ .

(٢) راجع : المصدر السابق : ص ٧٩ ، ٩٥ وفي ظلال القرآن : ٣٢٤/٣ .

(٣) هكذا في الأصل ، ولعلها الرابية ، أو لعل العبارة : وإنما قيل للرابية رابية لزيادتها .

ذلك قال أهل التأويل .

ثم يذكر ما روى عن مجاهد في الربا الذي نهى الله عنه : كانوا في الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين ، فيقول : لك كذا وكذا وتؤخر عني فيؤخره عنه .

وعن قتادة : أن ربا الجاهلية : يبيع الرجل البيع إلى أجل مسمى ، فإذا حل الأجل ولم يكن عند صاحبه قضاء زاده وأخر عنه (١) .

ويشير أيضًا إلى قول بعض أهل العلم - أو أهل التأويل كما يطلق عليهم - أن المراد بالقيام : القيام من القبر عند البعث ، وأن الله تعالى جعل من علامات المرابين يوم القيامة أنهم يُبعثون كالمصروعين ، ويوسع نطاق أكل الربا المستفاد من الآية بقوله : «فإن قال لنا قائل : أفرأيت من عمل ما نهى الله عنه من الربا في تجارته ولم يأكله ، أيستحق هذا الوعيد من الله ؟ قيل : نعم ، وليس المقصود من الربا في هذه الآية الأكل ، إلا أن الذين نزلت فيهم هذه الآيات يوم نزلت كانت طعمتهم ومأكلهم من الربا ، فذكرهم بصفتهم مُعَظِّمًا بذلك عليهم أمر الربا ، ومقبحًا إليهم الحال التي هم عليها في مطاعمهم ، وفي قوله جل ثناؤه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ ... الآية ما ينبئ عن صحة ما قلنا في ذلك ، وأن التحريم من الله في ذلك كان لكل معاني الربا ، وأنَّ سواءً العملُ به وأكله وأخذه وإعطاؤه ، كالذي تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من قوله : «لعن الله آكل الربا ، وموكله ، وكاتبه ، وشاهديه إذا علموا به» (٢) .

هكذا يتسع معنى أكل الربا لكل صور أخذ الربا ، أو المشاركة فيه على نحو ما . بل يتسع عند التحقيق لكل طرائق الكسب الحرام ، وجميع وجوه أكل أموال الناس بالباطل . وقد لاحظ القرطبي أيضًا المعنى اللغوي لمصطلح الربا ، وقال :

---

(١) تفسير الطبري : (١٠١/٣) طبعة دار الفكر ١٩٨٨ م .

(٢) المصدر السابق : (٣/١٠١-١٠٣) .

والربا في اللغة الزيادة مطلقًا يقال : ربا الشيء يربو إذا زاد ، ومنه الحديث : «فلا والله ما أخذنا من لقمة إلا ربا من تحتها» يعني الطعام الذي دعا فيه النبي ﷺ بالبركة ، خرج الحديث مسلم رحمه الله .

ثم إن الشرع قد تصرف في هذا الإطلاق ، فقصره على بعض موارده ؛ فمرة أطلقه على كسب الحرام ، كما قال الله تعالى : ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ ولم يرد به الربا الشرعي الذي حكم بتحريمه علينا ، وإنما أراد المال الحرام من الرشا ، وما استحلوه من أموال الأميين ، حيث قالوا : ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ وعلى هذا فيدخل فيه النهي عن كل مال حرام بأي وجه اكْتُسِبَ (١) .

ولم تَخرج كتب التفسير الأخرى التي اطلعت عليها عن المعاني التي قررتها جملة وتفصيلا . والمهم أنه في ضوء التحليل السابق ، والنظرة الموضوعية لكل صور الكسب الحرام نستطيع أن نفهم مغزى النبي ﷺ غبن المشتري أو البائع من صور التعامل الربوي ، حيث قال : «غبن المسترسل ربا» (٢) والمسترسل هو الذي يتعامل بالثقة بيعًا وشراء ، ولذلك وصف بأنه لا يماكس ، أو جاهل بسعر السوق فلا يعرف قيمة ما يشتري أو يبيع (٣) .

وقد دل الحديث ـ وما في معناه ـ على أن الغبن الذي لم يعلم به البائع أو المشتري ، ولم تسمح به نفسه هو ربا ؛ لأنه ظلم وغبن وخديعة وأكل مال الناس بالباطل .

وفي ذلك يقول ابن رشد : يظهر من الشرع أن المقصود بتحريم الربا إنما هو لمكان الغبن الكثير الذي فيه . وأن العدل في المعاملات إنما هو مقاربة

---

(١) تفسير القرطبي : ٣ / ٣٤٨ .

(٢) هذا الحديث رواه البيهقي في السنن الكبرى (٣٤٨/٥) من طريق أبي أمامة وجابر وأنس وعلي رضي الله عنهم .

(٣) راجع ما قررته حول هذا الحديث في رسالتي للدكتوراه (تنمية الموارد المالية في الشريعة الإسلامية : ١٤٩ ، ٣٤١ .

التساوي [١] ! .

وبالجملة فإن أكثر البيوع الممنوعة إنما تجد منعها لمعنى زيادة ؛ إما في عين مال ، وإما في منفعة لأحدهما من تأخير ونحوه .

ومن البيوع ما ليس فيه معنى الزيادة كبيع الثمرة قبل بدو صلاحها وكالبيع ساعة النداء يوم الجمعة ، فإن قيل لفاعلها : آكل ربا ، فتجوّز وتشبيه [٢] .

(١) بداية المجتهد : ٢/١٦٦ .

(٢) تفسير القرطبي : ٣/٣٤٨ .

المبحث الخامس

﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾

هذا الجزء من الآية الكريمة يفيد أمرين :

أحدهما : إثبات القرآن للصرع الشيطاني ، وأنه يؤثر على بدن المصروع ؛ فيظهر على حركاته وأفعاله . وهو ما سنعرض له بتفصيل في الفصل الثاني من هذه الدراسة إن شاء الله تعالى .

***

الثاني : أن الصرع كان معروفًا عند العرب ، وقت نزول القرآن ، وإلا لما شبه الله تعالى به حال من يأكل الربا ، لأن علة التشبيه عمومًا - أو وفقًا للمقررات البلاغية - هي تقريب المعنى البعيد ـ أو غير المعروف ـ بمعنى معروف مشهور - ولو كان خياليًا - عند السامع ، فالصرع إذن كان معروفًا عند العرب [1] .

ثم اختلفت وجهات المفسرين لهذه الآية حول توقيت قيام المرابي وتخبطه كهيئة الممسوس أو المصروع ؛ فالكثير منهم على أن ذلك يوم الفزع الأكبر ، وأن سقوطه كلما هَمَّ بالنهوض ، وتخبطَه تخبطَ المجنون علامةٌ مميزَة له ولأمثاله يوم القيامة .

وهؤلاء يؤيدون وجهتهم هذه بقراءة لابن مسعود رضي الله عنه .

وبعضهم يرى أن ذلك من الممكن أن يكون حال المرابين في الدنيا أيضًا ، فليس في الآية ـ مبناها ومعناها ـ ما يمنع من تشبيه المرابي في حرصه وعبادته للمال بالمتخبط المصروع ، فقد حقت عليه اللعنة ، وكان تعسًا : كما وصفه النبي ﷺ ، أو بدعائه ﷺ عليه .

فلنعرض ـ فيما يلي ـ لطرف مما قاله هؤلاء وهؤلاء :

---

(١) وراجع : تسليط الصولجان على شياطين الإنس والجان : ١/٥٠ .

الاتجـاه الأول : ويمثلـه ـ هنا ـ الطـبري ، والبغـوي ، والقـرطبي ، وابـن كثير ، والبيضاوي ، وأبو السعود ، والألوسي ... وغيرهم :

ـ جـاء في تفسير الطبري : الـذين يربون الربا ـ الـذي وصفنـا صفتـه ـ في الدنيا لا يقومون في الآخرة من قبورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ؛ يعني بذلك : يتخبطه الشيطان في الدنيا ، وهو الذي يتخبطه فيصرعه من المس ، يعني من الجنون . وبمثل ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل :

ـ وقد روى بسنده عن مجاهد في قول الله عز وجل : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ يوم القيامة في أكل الربا في الدنيا .

ـ وعن سعيد بن جبير ، عن ابن عبـاس ﴿الَّـذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ قال : ذلك حين يُبعث من قبره .

ـ وعن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أيضًا ، قال : يقال يوم القيامة لآكل الربا : خذ سلاحك للحرب ، وقرأ : ﴿لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ قال : ذلك حين يبعث من قبره .

ـ وعن جعفر ، عن سعيد بن جبير ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّـذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ ... الآية ، قال : يبعث آكل الربا يوم القيامة مجنونًا يخنق .

ـ وعن قتادة قوله : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ﴾ الآية ، وتلك علامة أهل الربا يوم القيامة ، بُعثوا وبهم خَبل من الشيطان . وفي رواية أخرى عن قتادة قال : هو التخبل الذي يتخبله الشيطان من الجنون .

ـ وعن الربيع في قوله : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ قال : يبعثون يوم القيامة وبهم خبل من الشيطان ، وهي في بعض القراءة : «لا يقومون يوم القيامة» .

ـ وعن جويبر ، عن الضحاك في قوله ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ قال : من مات وهو يأكل الربا بُعِثَ يوم القيامة متخبطًا كالذي يتخبطه الشيطان من المس .

ـ وعن السدي ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ يعني من الجنون .

ـ وقال ابن زيد في قوله ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ قال : هذا مثلهم يوم القيامة لا يقومون مع الناس ، إلا كما يقوم الذي يخنق (مع الناس) يوم القيامة (١) كأنه خنق ، كأنه مجنون ، ومعنى قوله : ﴿يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ يتخبله من مسه إياه ، يقال منه : قد مس الرجل وأُلِقَ فهو ممسوس ومألوق ، كل ذلك إذا ألَمَّ به اللمم فَجُنَّ ، ومنه قول الله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ﴾ ومنه قول الأعشى :

وتُصْبح عن غِبِّ السُّرَى وكأنما ألمَّ بها من طائف الجن أوْلَقُ (٢)

وقال البغوي ـ في تفسيره المسمى «معالم التنزيل» ـ :

﴿لاَ يَقُومُونَ﴾ ، يعني : يوم القيامة من قبورهم ﴿إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ﴾ ، أي يصرعه ﴿الشَّيْطَانِ﴾ ، أصل الخبط : الضرب والوطء وهو ضرب على غير استواء ، يقال : ناقة خبوط للتي تطأ الناس وتضرب الأرض بقوائمها ، ﴿مِنَ الْمَسِّ﴾ ، أي : الجنون ، يقال : مُسَّ الرجل فهو ممسوس إذا كان مجنونًا ، ومعناه : أن آكل الربا يبعث يوم القيامة كمثل المصروع .

---

(١) قوله «مع الناس يوم القيامة» الخ ، هكذا في الأصل ، ولعل هنا تكرارًا أو تحريفًا من الناسخ .

(٢) البيت لأبي بصير الأعشى ، وقوله : غب الشيء : عاقبته وما يليه . والسرى : سير الليل . وألم بها : خالطها ، والطائف : ما يمس الإنسان ويطوف به . والأولق : الجنون . يقال : أُلِقَ الرجل ألقًا : جُنّ ، فهو مألوق وبه ألق . يقول : تسير بالليل سيرًا طويلا مجهدًا ، فإذا أصبحت فكأن بها مسًا من الجن ، من نشاطها وسرعتها أو قوتها على استئناف السير . (تفسير الطبري : ١٠١/٣ - ١٠٣) .

ثم يروى حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ في قصة الإسراء ، قال : فانطلق بي جبريل عليه السلام إلى رجال كثير ، كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم ، منضدين على سابلة آل فرعون ، وآل فرعون يعرضون على النار غدوًا وعشيًا ، قال : فيقبلون مثل الإبل المنهومة يخبطون الحجارة والشجرة لا يسمعون ولا يعقلون ، فإذا أحس بهم أصحاب تلك البطون قاموا ، فتميل بهم بطونهم فيصرعون ، ثم يقوم أحدهم فيميل به بطنه فيصرع ، فلا يستطيعون أن يبرحوا حتى يغشاهم آل فرعون فيردوهم مقبلين ومدبرين ، فذلك عذابهم في البرزخ بين الدنيا والآخرة ، قال : وآل فرعون يقولون : اللهم لا تُقِم الساعة أبدًا ، قال : يوم القيامة يقال : أدْخِلوا آل فرعون أشد العذاب ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ ، أي : ذلك الذي نزل بهم لقولهم هذا واستحلالهم إياه ، وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حل ماله على غريمه فطالبه فيقول الغريم لصاحب الحق : زدني في الأجل حتى أزيدك في المال ، فيفعلان ذلك ويقولون : سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند المحل لأجل التأخير ، فكذبهم الله تعالى وقال : ﴿وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ . واعلم أن الربا في اللغة ، الزيادة ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ أي : ليكثر فلا يربو عند الله ، فطلب الزيادة بطريق التجارة غير حرام في الجلة ، إنما المحرم زيادة على صفة مخصوصة في مال مخصوص بينه رسول الله ﷺ [1] .

وفي تفسير القرطبي : ﴿لاَ يَقُومُونَ﴾ والمعنى من قبورهم ، قاله ابن عباس ومجاهد وابن جبير وقتادة والربيع والضحاك والسدي وابن زيد .

---

(١) تفسير البغوي : ١/٢٦١ - ٢٦٢ طبعة دار المعرفة ـ بيروت .

وقال بعضهم : يجعل معه شيطان يخنقه . وقالوا كلهم : يبعث كالمجنون ؛ عقوبة له وتمقيتًا عند جميع أهل المحشر . ويُقَوي هذا التأويلَ المجمع عليه أن في قراءة ابن مسعود «لا يقومون يوم القيامة إلا كما يقوم» (١) ...

إلى أن قال : فجعل الله هذه العلامة لأَكَلَة الربا ؛ وذلك أنه أرباه في بطونهم فأثقلهم ، فهم إذا خرجوا من قبورهم يقومون ويسقطون . ويقال : إنهم يبعثون يوم القيامة قد انتفخت بطونهم كالحبالى ، وكلما قاموا سقطوا والناس يمشون عليهم . وقال بعض العلماء : إنما ذلك شعار لهم يعرفون به يوم القيامة ، ثم العذاب من وراء ذلك ، كما أن الغالَّ يجيء بما غَلّ يوم القيامة بشهرة يشهر بها ، ثم العذاب من وراء ذلك .

إلى أن قال : في هذه الآية دليل على فساد إنكار الصرع من جهة الجن ، وزَعمِ أنه من فعل الطبائع ، وأن الشيطان لا يسلك في الإنسان ولا يكون منه مس . وقد روى النسائي عن أبي اليسر قال : كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول : «اللهم إني أعوذ بك من التردي والهدم والغرق والحريق وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبرًا وأعوذ بك أن أموت لديغًا» . وروى من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه كان يقول : «اللهم إني أعوذ بك من الجنون والجذام والبرص وسيئ الأسقام» . والمس : الجنون ؛ يقال : مس الرجل وأُلِسَ ؛ فهو ممسوس ومألوس إذا كان مجنونًا ؛ وذلك علامة الربا في الآخرة . وروى في حديث الإسراء : «فانطلق بي جبريل فمررت برجال كثير كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم منضدين على سابلة آل فرعون ، وآلُ فرعون يعرضون على النار بكرة وعشيًا فيقبلون مثل الإبل المهيومة (٢) يتخبطون الحجارة

---

(١) تفسير القرطبي : ٣/٣٥٤ وهو قريب مما ورد في تفسير ابن كثير : ١/٣٢٦ .

(٢) المهيومة : المصابة بداء الهيام ، وهو داء يصيب الإبل فتهيم في الأرض ولا ترعى . وقيل : داء من شدة العطش . وفي بعض ألفاظ الحديث : الإبل المنهومة كما رأينا عند البغوي في الفقرة السابقة ، والمعنى قريب .. (راجع اللفظتين في المعجم الوسيط) .

والشجر لا يسمعون ولا يعقلون فإذا أحس بهم أصحاب تلك البطون قاموا فتميل بهم بطونهم فيصرعون ثم يقوم أحدهم فيميل به بطنه فيصرع فلا يستطيعون براحًا حتى يغشاهم آل فرعون فيطئونهم مقبلين ومدبرين ، فذلك عذابهم في البرزخ بين الدنيا والآخرة ، وآل فرعون يقولون : اللهم لا تقم الساعة أبدًا ؛ فإن الله تعالى يقول : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ . قلت . يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون الربا ﴿لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ . والمس الجنون ، وكذلك الأولق والألس والرَّوْد [1].

وفي أسرار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي : « ﴿لاَ يَقُومُونَ﴾ إذا بعثوا من قبورهم ﴿إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ إلا قيامًا كقيام المصروع ، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع ، والخبط ضرب على غير اتساق كخبط العشواء ﴿مِنَ الْمَسِّ﴾ أي الجنون ، وهذا أيضًا من زعماتهم أن الجني يمسه فيختلط عقله ، ولذلك قيل : جُنّ الرجل ، وهو متعلق بـ ﴿لاَ يَقُومُونَ﴾ ، أي لا يقومون من المس الذي بهم بسبب أكل الربا ، أو بـ ﴿يَقُومُونَ﴾ أو بـ ﴿يَتَخَبَّط﴾ فيكون نهوضهم وسقوطهم كالمصروعين ، لا لاختلال عقلهم ولكن لأن الله أربى في بطونهم ما أكلوه من الربا فأثقلهم» [2] .

ونقل أبو السعود هذا الكلام بنصه ، وأضاف : «فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون ، تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف» [3] .

وقال الشيخ طنطاوي ـ صاحب تفسير الجواهر ـ نحو هذا أيضًا ؛ إذ قال :

---

(١) الأولق والولق : العَدْو السريع الذي يشبه الجنون . وقوله : ألس بمعنى اختلط عقله فهو مألوس . أما الرود فلم يبدُ لها وجهٌ ، إلا ما ورد من أن الشيطان يريد ابن آدم بكل ريدة ؛ أي بكل مطلب ومراد .. ومن دلالاتها في المعجم الوسيط : المخادعة والمراوغة والحمل على الشيء .. (وراجع أيضًا : تفسير القرطبي : ٣/٣٥٥ وهامشها) .

(٢) تفسير البيضاوي (٧٩١هـ) المسمى : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١/١٤٢ طبعة الحلبي ١٩٦٨م .

(٣) تفسير أبي السعود (٩٥١هـ) : ١/٢٦٦ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

«وصف الله المتعاملين بالربا بأنهم يقومون من قبورهم يوم القيامة كما يقوم الذي يضربه الشيطان ضربًا على غير اتساق بسبب الجنون اتباعًا لزعم العرب وأسلوبهم في التعبير عن حال المصروع ، وإنما ذلك لأنهم سَوَّوْا بين البيع والربا ، والله أحل البيع وحرم الربا» (١) .

وقال الألوسي - في روح المعاني - : ﴿لاَ يَقُومُونَ﴾ أي يوم القيامة ، وبه قرئ كما في الدر المنثور ... وقيام المرابي يوم القيامة كذلك - يعني كقيام المتخبط المصروع في الدنيا - مما نطقت به الآثار ، فقد أخرج الطبراني عن عوف بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «إياك والذنوب التي لا تغفر : الغلول ، فمن غل شيئًا أتى به يوم القيامة . وأكل الربا ، فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنونًا يتخبط» ثم قرأ الآية ، وهو مما لا يحيله العقل ولا يمنعه ، ولعل الله تعالى جعل ذلك علامة له يُعْرف بها يوم الجمع الأعظم ؛ عقوبة له ، كما جعل لبعض المطيعين أمارة تليق به يُعرف بها ؛ كرامة له . ويشهد لذلك أن هذه الأمة يبعثون يوم القيامة غرًّا محجلين من آثار الوضوء . وإلى هذا ذهب ابن عباس وابن مسعود وقتادة ، واختاره الزجاج (٢) .

.. وهكذا ذهب أصحاب هذا الاتجاه - ووافقهم كثيرون - إلى أن هذه العلامة على المرابين إنما تكون يوم القيامة ، حين يُحْشر الناس لرب العالمين ، فلا يقوى هؤلاء المرابون على النهوض ، وحتى إذا استطاعوا القيام فإنهم يتخبطون في مشيهم أو يتحركون كما يفعل المجنون ، فلا إرادة لهم ولا اختيار ، وإنما هو نوع من عقاب الله وخزيه لهؤلاء العصاة المذنبين .

الاتجاه الثاني : وأكتفي منه بما قرأته في تفسير الماوردي ، وبما نسب إلى ابن عطية وكذا ما ذكره صاحبا تفسير المنار ، وفي ظلال القرآن . . حول هذه المسألة

---

(١) الجواهر في تفسير القرآن الكريم : للشيخ طنطاوي جوهري : ٢٧٠/١ طبعة الحلبي ١٣٥٠هـ .
(٢) روح المعاني : للألوسي : ٤٩/٣ .

(لا يقومون : متى ؟ وكيف ؟) .

والأصل أنني هنا أبحث في تفسير قوله تعالى : ﴿لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ ، وقد تبين لي ـ في الإجابة عن : متى ؟ ـ أن الجمهور على أن ذلك يوم القيامة ، وتؤيدهم قراءة ابن مسعود للآية .

أما الاتجاه الثاني فيذهب إلى احتمال هذا التشبيه في الدنيا أيضًا ؛ ومن ثم تساءلت عن : كيف يكون قيام هؤلاء ؟ وهذا واضح مما يأتي :

ـ فالماوردي ـ في (النكت والعيون) ـ يقول في تفسير ﴿لاَ يَقُومُونَ﴾ يعني من قبورهم يوم القيامة . ومع ذلك نراه يقول : «وفيه قولان :

أحدهما : كالسكران من الخمر يقطع ظهرًا لبطن ، ونسب إلى الشيطان ؛ لأنه مطيع له في سكره .

والثاني : قاله ابن عباس وابن جبير ومجاهد والحسن لا يقومون يوم القيامة من قبورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، يعني الذي يخنقه الشيطان في الدنيا من المس ، يعني الجنون . . فيكون ذلك في القيامة علامة لأكل الربا في الدنيا» [1] .

ولولا هذه المقابلة في القولين المذكورين لقلت : إنه ينتمي إلى الاتجاه الأول ألبتة .

ـ أما ما نسب إلى ابن عطية ؛ فهو قوله : وأما ألفاظ الآية فكانت تحتمل تشبيه حال القائم بحرص وجشع إلى تجارة الدنيا ـ أو تجارة الربا ـ بقيام المجنون ، لأن الطمع والرغبة تستفزه حتى تضطرب أعضاؤه . وهذا كما تقول لمسرع في مشيه يخلط في هيئة حركاته إما من فزع أو غيره : قد جُنّ هذا ، وقد شبه الأعشى ناقته في نشاطها بالجنون في قوله :

---

(١) تفسير الماوردي : ٢٨٨/١ الطبعة الأولى ١٩٨٢م ـ الكويت .

وتصبح عن غب السرى وكأنما　　ألم بها من طائف الجن أولق

وقال آخر :

... لعمرك بي من حب أسماء أولق [١]

وفي روح المعاني : قال ابن عطية : المراد تشبيه المرابي في حرصه وتحركه في اكتسابه في الدنيا بالمتخبط المصروع ، كما يقال لمن يسرع بحركات مختلفة : قد جُنّ [٢] .

لكن القرطبي يرد كلام ابن عطية ، ويقول : «ما جاءت به قراءة ابن مسعود ، وتظاهرت به أقوال المفسرين يضعف هذا التأويل» [٣] .

وأوضح من ذلك ما قاله الألوسي : «ولا يخفى أنه مصادمٌ لما عليه سلف الأمة ، وروى عن رسول الله ﷺ من غير داع سوى الاستبعاد الذي لا يُعتبر في مثل هذه المقامات» [٤] .

لكن السيد محمد رشيد رضا يعرض لقول ابن عطية ، ويصفه بأنه المتبادر من الآية ، وإن كان مذهب الجمهور على خلافه . والأكثر من هذا أنه فسر الجن ، بالأجسام الحية الخفية التي لا تُرى ، والتي تسبب كثيرًا من الأمراض في هذا العصر كالميكروبات والجراثيم فيقول : وأما قيام آكل الربا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، فقد قال ابن عطية في تفسيره : المراد تشبيه المرابي في الدنيا بالمتخبط المصروع ، كما يقال لمن يصرع بحركات مختلفة : قد جن . أقول : وهذا هو المتبادر ، ولكن ذهب الجمهور إلى خلافه ، وقالوا : إن المراد بالقيام من القبر عند البعث ، وأن الله تعالى جعل من علامة المرابين يوم القيامة أنهم يبعثون

---

(١) أولق : جنون . وراجع : تفسير القرطبي : ٣٥٤/٣ .

(٢) روح المعاني : ٤٩/٣ .

(٣) تفسير القرطبي : ٣٥٤/٣ .

(٤) روح المعاني : ٤٩/٣ .

كالمصروعين . ورَوَوْا ذلك عن ابن عباس وابن مسعود ، بل روى الطبراني من حديث عوف بن مالك مرفوعًا : «إياك والذنوب التي لا تغفر : الغلول ، فمن غل شيئًا أتى به يوم القيامة ، والربا : فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنونًا يتخبط» أقول : والمتبادر إلى جميع الأفهام ما قاله ابن عطية ؛ لأنه إذا ذكر القيام انصرف إلى النهوض المعهود في الأعمال ، ولا قرينة تدل على أن المراد به البعث . وهذه الروايات لا يسلم منها شيء من قول في سنده وهي لم تنزل مع القرآن ولا جاء المرفوع منها مفسرًا للآية . ولولاها لما قال أحدٌ بغير المتبادر الذي قاله ابن عطية إلا من لم يظهر له صحته في الواقع . وكان الوضاعون الذين يختلقون الروايات يتحرون في بعضها ما أشكل عليهم ظاهره من القرآن فيضعون لهم رواية يفسرونه بها وقلما يصح في التفسير شيء ، كما قال الإمام أحمد .

أما ما قاله ابن عطية فهو ظاهر في نفسه ، فإن أولئك الذين فتنهم المال واستعبدهم حتى ضريت نفوسهم بجمعه وجعلوه مقصودًا لذاته وتركوا - لأجل الكسب به - جميعَ موارد الكسب الطبيعي ، تَخرج نفوسهم عن الاعتدال الذي عليه أكثر الناس ، ويظهر ذلك في حركاتهم وتقلبهم في أعمالهم ، كما تراه في حركات المولعين بأعمال البورصة والمغرمين بالقمار يزيد فيهم النشاط والانهماك في أعمالهم ، حتى يكون خفة تعقبها حركات غير منتظمة ، وهذا هو وجه الشبه بين حركاتهم وبين تخبط الممسوس ، فإن التخبط من «الخبط» وهو ضرب غير منتظم ، وكخبط العشواء ، وبهذا يمكن الجمع بين ما قاله ابن عطية وما قاله الجمهور ، ذلك بأنه إذا كان ما شُنّع به على المرابين من خروج حركاتهم عن النظام المألوف هو أثر اضطراب نفوسهم وتغير أخلاقهم كان لا بد أن يبعثوا عليه ، فإن المرء يبعث على ما مات عليه ، لأنه يموت على ما عاش عليه ، وهناك تظهر صفات النفس الخسيسة في أقبح مظاهرها ، كما تتجلى صفات النفس الزكية في أبهى مجاليها .

ثم إن التشبيه مبني على أن المصروع - الذي يُعَبر عنه بالممسوس - يتخبطه الشيطان ، أي أنه يصرع بمس الشيطان له وهو ما كان معروفًا عند العرب

وجاريًا في كلامهم مجرى المثل .

قال البيضاوي في التشبيه : «وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع ، والخبط : ضرب على غير اتساق كخبط العشواء» . اهـ . وتبعه أبو السعود كعادته ، فذكر عبارته بنصها ، فالآية على هذا لا تثبت أن الصرع المعروف يحصل بفعل الشيطان كما هو ظاهر التشبيه - وإن لم يكن نصًا فيه - وقد ثبت عند أطباء هذا العصر أن الصرع من الأمراض العصبية التي تعالج -كأمثالها - بالعقاقير وغيرها من طرق العلاج الحديثة ، وقد يعالج بعضها بالأوهام ، وهذا ليس برهانًا قطعيًا على أن هذه المخلوقات الخفية التي يعبر عنها بالجن يستحيل أن يكون لها نوع اتصال بالناس المستعدين للصرع ، فتكون من أسبابه في بعض الأحوال ، والمتكلمون يقولون : إن الجن أجسام حية خفية لا ترى ، وقد قلنا في (المنار) غير مرة : إنه يصح أن يقال : إن الأجسام الحية الخفية التي عُرِفت في هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة ، وتسمى بالميكروبات يصح أن تكون نوعًا من الجن ، وقد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض . قلنا ذلك في تأويل ما ورد من أن الطاعون من وَخزِ الجن ، على أننا نحن المسلمين لسنا في حاجة إلى النزاع فيما أثبته العلم ؛ فنحمد الله تعالى على أن القرآن أرفع من أن يعارضه العلم» [1] .

أما سيد قطب مؤلف كتاب (في ظلال القرآن) - فيقول :

«وما كان أي تهديد معنوي ليبلغ إلى الحس ما تبلغه هذه الصورة المجسمة الحية المتحركة . صورة الممسوس المصروع . وهي صورة معروفة معهودة للناس . فالنص يستحضرها لتؤدي دورها الإيحائي في إفزاع الحس ، لاستجاشة مشاعر المرابين ، وهَزِّها هزةً عنيفة تخرجهم من مألوف عادتهم في نظامهم الاقتصادي ...

ولقد مضت معظم التفاسير على أن المقصود بالقيام في هذه الصورة المفزعة ، هو القيام يوم البعث . ولكن هذه الصورة - فيما نرى - واقعة بذاتها في

---

(١) تفسير المنار : ٣/٧٩ - ٨١ .

حياة البشرية في هذه الأرض أيضًا . ثم إنها تتفق مع ما سيأتي بعدها من الإنذار بحرب من الله ورسوله . ونحن نرى أن هذه الحرب واقعة وقائمة الآن ومسلطة على البشرية الضالة التي تتخبط كالممسوس في عقابيل النظام الربوي [1] .

والأكثر من هذا أنه يوسع دائرة هذه الدنيوية - والأخروية معًا - بحيث تشمل المجتمع الربوي كله ؛ يقول : والذين يأكلون الربا ليسوا هم الذين يأخذون الفائدة الربوية وحدهم - وإن كانوا هم أولَ المهدَّدين بهذا النص الرهيب - إنما هم أهل المجتمع الربوي كلهم .

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أنه قال : لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله ، وشاهديه وكاتبه ، وقال : «هم سواء» . وكان هذا في العمليات الربوية الفردية ، فأما في المجتمع الذي يقوم كله على الأساس الربوي ، فأهله كلهم ملعونون ، معرضون لحرب الله ، مطرودون من رحمته بلا جدال .

إنهم لا يقومون في الحياة ولا يتحركون إلا حركة الممسوس المضطرب القلق ، المتخبط الذي لا ينال استقرارًا ولا طمأنينة ولا راحة . وإذا كان هناك شك في الماضي أيام نشأة النظام الرأسمالي الحديث في القرون الأربعة الماضية فإن تجربة هذه القرون لا تُبقي مجالا للشك أبدًا .

إن العالم الذي نعيش فيه اليوم - في أنحاء الأرض - هو عالم القلق والاضطراب والخوف ، والأمراض العصبية والنفسية باعتراف عقلاء أهله ومفكريه وعلمائه ودارسيه ، وبمشاهدات المراقبين والزائرين العابرين لأقطار الحضارة الغربية . وذلك على الرغم من كل ما بلغته الحضارة المادية ، والإنتاج الصناعي في مجموعه من الضخامة في هذه الأقطار . وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادي التي تأخذ بالأبصار . ثم هو عالم الحروب الشاملة والتهديد الدائم بالحروب المبيدة ، وحرب الأعصاب ، والاضطرابات التي لا تنقطع هنا وهناك !

---

(١) في ظلال القرآن : ٣/٣٢٤ .

إنها الشقوة البائسة المنكودة ، التي لا تزيلها الحضارة المادية ، ولا الرخاء المادي ، ولا يُسْرُ الحياة المادية ، وخفضها ولينها في بقاع كثيرة ، وما قيمة هذا كله إذا لم يُنشئ في النفوس السعادةَ والرضى والاستقرار والطمأنينة [١] .

- وأنا أميل إلى هذا الاتجاه الثاني - الذي قال به ابن عطية ومن وافقه - وأرى أنه ليس هناك ما يمنع من الأخذ به ؛ ما دمنا نهدف إلى ترهيب الناس من الربا ، وتحذيرهم من شروره وآثامه في الدنيا والآخرة .

فنحن لم نرفض القول بأن ذلك يوم القيامة ، لكننا نتساءل : ولماذا لا تكون هذه العقوبة القدرية في الدنيا أيضًا ؟ فلعل الناس - وقد باتوا يتحايلون على الربا وأكل أموال الناس بالباطل ، بل يباهون بذلك - لعلهم إنْ ذُكِّروا يتعظوا ، وإن راجعوا أنفسهم وحاسبوها في الدنيا تابوا إلى ربهم وأنابوا ، قبل الخزي ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [٢] .

وأرى أيضًا في قوله تعالى بعد ذلك : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ ما يرجح هذا الاتجاه ؛ لأننا إزاء تهديد شديد ووعيد أكيد إن لم يذروا الربا ، والحرب داعية القتل . وروى عن ابن عباس قوله : «يقال يوم القيامة لآكل الربا : خذ سلاحك للحرب» . وقال أيضًا : «من كان مقيمًا على الربا لا ينزع عنه فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه ، فإن نزع وإلا ضرب عنقه» . وقال قتادة : «أوعد الله أهل الربا بالقتل فجعلهم بهرجًا أينما ثقفوا» . وقيل : المعنى ، إن لم تنتهوا فأنتم حرب لله ورسوله ؛ أي أعداء . وقال ابن خويز منداد : ولو أن أهل بلد اصطلحوا على الربا استحلالا كانوا مرتدين ، والحكم فيهم كالحكم في أهل الردة ، وإن لم يكن ذلك منهم استحلالا جاز للإمام محاربتهم ، ألا ترى أن الله تعالى قد أذن في ذلك فقال : ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [٣] .

---

(١) في ظلال القرآن : ٣/٣٢٥ - ٣٢٦ . (٢) الآيات : ٨٧ - ٨٩ الشعراء .
(٣) تفسير القرطبي : ٣/٣٦٣ ، ٣٦٤ وراجع أيضًا : تفسير ابن كثير : ١/٣٣٠ .

وقد قرئت ﴿فَآذِنُواْ﴾ بالمد بمعنى فأعلموا غيركم . كما قرئت بالقصر بمعنى فاعلموا أنتم . وفيه وجهان :

أحدهما : إن لم تنتهوا عن الربا أمرتُ النبي بحربكم .

والثاني : عن ابن عباس ، إن لم تنتهوا عنه فأنتم حَرْبٌ لله ورسوله ، يعني أعداءه [١] .

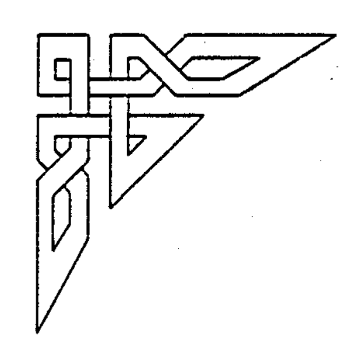
وطبعًا ليس مسلمًا من يأبى طاعة شريعة الله ، ولا ينفذها في واقع الحياة ، ثم هي حرب معلنة في صورتها الشاملة الداهمة الغامرة . وهي حرب على الأعصاب والقلوب . وحرب على البركة والرخاء . وحرب على السعادة والطمأنينة [٢] .

فلننتقل بالبحث خطوة أخرى ، وهي خليقة بالدراسة ، بل من أجلها نشأت فكرتها ؛ أعني (قضية المس) أو (تلبس الجن بالإنسان بين الإثبات والنفي) في ضوء معطيات آية سورة البقرة ، التي قامت هذه الدراسة في رحابها ، واستهدفت شرحها وتحليلها .

***

(١) تفسير الماوردي : ٢٩٢/١ .

(٢) في ظلال القرآن : ٣٣١/٣ وكان سيد قطب قد لاحظ المقابلة بين هذه الآية التي تناولت مسألة الربا ، والآيات السابقة عليها ، والتي تحدثت عن الصدقة أو الإنفاق في سبيل الله والأجر الذي وعد الله به من ينفقون أموالهم بالليل والنهار ، سرًا وعلانية ، وعقد مقارنة بين الوجهين أو المسلكين ، وعاقبة كل منهما ، ومما قاله في ذلك : الصدقة عطاء وسماحة ، وطهارة وزكاة ، وتعاون وتكافل . والربا شح ، وقذارة ودنس ، وأثرة وفردية ... ومن ثم فهو ـ الربا ـ الوجه الآخر المقابل للصدقة ، الوجه الكالح الطالح ! .. (المصدر نفسه : ٣١٨/٣) .

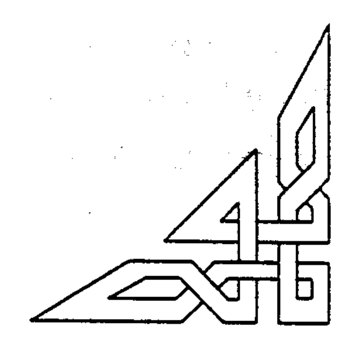


الفصل الثاني

تلبس الجن بالإنسان بين الإثبات والنفي وتحته عدة مباحث ؛ هي :

- مبحث تمهيدي : أصل الجن وأسماؤهم وأصنافهم ومساكنهم ..
- المبحث الثاني : إثبات الجن ، والخلاف فيه ..
- المبحث الثالث : مسألة دخول الجن بدن المصروع والخلاف فيها .
- المبحث الرابع : الأمراض النفسية : أسبابها ، أعراضها ، طرق علاجها .

***



المبحث الأول (تمهيد)
في أصل الجن، وأسمائهم، وأصنافهم ...

الجن خلق من مخلوقات الله عز وجل، وعالم يختلف عن عالمي الإنس والملائكة .. وثمة أمور مشتركة بين هذه العوالم الثلاثة المخلوقة لله رب العالمين، ثم تفترق، أو تتباين في أمور أخرى، فعالم الجن - مثلاً - يتصفون بالعقل والإدراك، وبالقدرة على اختيار سبيل الخير أو الشر كالإنسان تمامًا، وهم مخاطبون بالعبادات وسائر التكاليف الشرعية، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١).

ويقول أيضًا على لسانهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ (٢) لكنهم يخالفون الإنسان في أصل الخلقة أو النشأة الأولى، وفي قدرتهم على التشكل بأشكال مختلفة، وفي طعامهم ومسكنهم وغير ذلك.

ولعل تسميتهم بالجن لاجتنانهم، أي استتارهم عن العيون، كما ذكر القرآن الكريم عنهم: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (٣). أي أن الشيطان يراكم هو وذريته وأنتم لا ترونهم، وإذا كان هذا حكم الأعم الأغلب من أحوال بني آدم، بدليل ما ثبت من أن أصحاب سليمان عليه السلام كانوا يرون الجن وهو من دلائل نبوته، حتى تقوم الحجة له لمكانته عليهم. كما ورد في السنة الصحيحة أن النبي ﷺ رآهم وخاطبهم، وأن بعض الحيوانات ترى الجن .. وهذا ليس غريبًا فقد تحقق العلماء من قدرة بعض الأحياء على رؤية ما لا نراه؛ فالنحل

---

(١) الآية: ٥٦ / الذاريات.
(٢) الآية: ١١ / الجن، واقرأ الآيات التي بعدها.
(٣) الآية: ٢٧ / سورة الأعراف، وراجع مثلاً: الجن والشياطين مع الناس: عبد الوهاب العفان الطبعة الثانية ١٩٨٩ م ص ٧ وعالم الجن والشياطين للدكتور عمر سليمان الأشقر مكتبة الفلاح الطبعة الخامسة ١٩٨٩ م، ص ١١.

يرى الأشعة فوق البنفسجية ، ولذلك فإنه يرى الشمس حال الغيم ، والبومة ترى الفأر في ظلمة الليل البهيم .

وحتى إذا كانت الآية على ظاهرها وعمومها بالنسبة إلينا فإنه لا يجوز التكذيب بالجن بدعوى أننا لا نراهم ، فالكون مليء بأمور لا نراها ولا نسمعها مع كونها موجودة ، فالمذياع يستطيع أن يلتقط آلاف الأصوات وآذاننا لا تقوى على ذلك . والروح تسري في أجسادنا ونحن لا نراها أو نشاهدها . والتيار الكهربائي الذي يسري في الأسلاك لا تبصره أعيننا ؛ فأبصارنا لم تعط القدرة على إبصار كل شيء ، وآذاننا لم تعط القدرة أيضًا على الاستماع لكل الأصوات ، وقد ذم الله أقوامًا على تكذيبهم بأمور لم يصل إليها علمهم .. فقال : ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ﴾ (١) .

أصل الجن :

لقد تحدث القرآن الكريم والسنة المطهرة عن أصل الجن ، وبينا أنهم مخلوقون من نار ، كما في قوله تعالى حكاية عن إبليس ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ وقوله : ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ (٢) وهو طرف لهبها ، هكذا فسرها ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم رضي الله عنهم . وقال آخرون : ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أي من خالص النار وأحسنها (٣) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم : «المارج اللهب المختلط بسواد النار» وقد أخرج الإمام أحمد ومسلم بسنديهما عن السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال : «خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ،

---

(١) من الآية : ٣٩ / يونس . وراجع : المصدر السابق : ١٢ ، ١٣ ، وعالم الجن والشياطين من الكتاب والسنة : محمد بيومي : ٣٢ ، ٣٣ مكتبة الإيمان ـ المنصورة .

(٢) الآيتان على الترتيب : ٧٦ / ص ، ١٥ / الرحمن .

(٣) تفسير ابن كثير : ٥٥٠/٢ ، ٢٧١/٤ طبعة دار إحياء التراث العربي ١٩٦٩ م .

وخلق آدم مما وصف لكم» [١] . ومن جهة أخرى فإن القرآن الكريم يقرر بصريح العبارة أن خلق الجان متقدم على خلق الإنسان ، يقول تعالى : ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [٢] .

أسماء الجن :

تختلف إطلاقات كلمة «الجن» - في كتب اللغة - بحسب مرتبته ونوازعه ؛ لأن العرب إذا ذكروا الجن خالصًا قالوا : جني ، وهو الأصل [٣] فإن أرادوا الذي يسكن البيوت مع الناس قالوا : عامر ، والجمع عمار . وإن أرادوا ما يعرض للصبيان قالوا : أرواح . فإن خبث وتمرد قالوا : شيطان ، فإن زاد على ذلك فهو مارد ، فإن زاد أمره واشتد خبثه قالوا : عفريت ، والجمع عفاريت فالجن أصل جامع لكل من الشيطان والعفريت والمارد [٤] ، والله أعلم .

يقول الشوكاني - في تعليقه على حديث أبي هريرة : «إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع الأذان» ... يقول : الشيطان إبليس ، وعليه يدل كلام كثير من الشراح . ويحتمل أن المراد جنس الشيطان ، وهو كل متمرد من الجن أو الإنس .. لكن المراد ههنا شيطان الجن خاصة ... إلى أن قال : «والحديث يدل على أن الوسوسة في الصلاة غير مبطلة لها ، كذلك سائر الأعمال القلبية لعدم الفارق» [٥] .

---

(١) المصدر السابق ؛ الموضعان المذكوران ، وانظر لقط المرجان في أحكام الجان : للسيوطي ص ١٠ - ١٢ بتعليق خالد شبل ، نشر مكتبة التراث الإسلامي .

(٢) الآية ٢٧ الحجر ، وراجع - إن شئت - تفسيرها في تفسير القرآن العظيم : ٢/٥٥٠ .

(٣) ومادته ومشتقاتها تدور حول معنى استتر ، فكأنه سمي بهذا الاسم (جن) لاستتاره عن الأعين ، ومن ذلك الجنة ، والجنة ، والجنين ... (راجع مثلاً المعجم الوسيط) .

(٤) راجع : هذه المفردات في كتب اللغة ، وغرائب وعجائب الجن للشبلي (بدر الدين الشبلي الحنفي المتوفى سنة ٧٦٩ هـ) : ص ٢٥ طبعة سنة ١٩٨٢ م مكتبة القرآن - مصر . والجن والشياطين مع الناس : ٨ ، وعالم الجن والشياطين : ١٢ .

(٥) نيل الأوطار ٢/٣٤٤ طبعة دار القلم - بيروت .

وكان ابن كثير قد ذكر - في معرض كلامه عن الاستعاذة - أن العرب يسمون كل من تمرد من جني وإنسي وحيوان شيطانًا ، قال الله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ ، وفي مسند الإمام أحمد عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ يا أبا ذر : «تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن فقلت أوَ للإنس شياطين ؟ قال : نعم» [1] .

وقال أيضًا : الشيطان في لغة العرب مشتق من شطن إذا بعد ، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر ، وبعيد بفسقه عن كل خير . وقيل : مشتق من شاط ؛ لأنه مخلوق من نار . ومنهم من يقول : كلاهما صحيح في المعنى ولكن الأول أصح ، وعليه يدل كلام العرب [2] ..

وقيل : إن الجن والشياطين من نوع متحد الأصل مختلف الصفة باعتبار أمر عرض لهما وهو الكفر والإيمان ، فالكافر منهم يسمى الشيطان ، والمؤمن الجن .

وقيل : إن الجن ولد الجان وليسوا بشياطين ، ولا يمتون إليهم بنسب ، ومنهم المؤمن والكافر ، وهم يموتون ، والشياطين ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس .. والرأي الأول هو الصحيح وهو مذهبهم .

وقيل : إن الجن والملائكة جنس واحد ، فمن طهر منهم فهو ملك ، ومن خبث فهو شيطان ، ومن كان بَيْنَ بَيْنَ فهو جني .. وهذا رأي خاطئ [3] . وقال ابن دريد : زعم قوم من أهل اللغة أن اشتقاق إبليس من الإبلاس ، كأنه أبلس أي يئس من رحمة الله ، وأبلس الرجل إبلاسًا فهو مبلس إذا يئس . ثم قال أبو عبد الله

---

(١) تفسير ابن كثير ١٥/١ طبعة دار إحياء التراث العربي ١٩٦٩ م .

(٢) المصدر المذكور ، ونفس الموضع .

(٣) راجع تحذير الناس أجمعين من سحر إبليس والشياطين : محيي الدين الطعمي ص ٥٧ المكتبة الثقافية - بيروت .

الشبلي : «وهذا يدل على أن إبليس إنما سمي بهذا الاسم بعد أن لعن الله تعالى إياه» ، وَذَكَرَ بَعْضَ الرِّوَايَاتِ عن ابن عباس وغيره في اسم إبليس وكنيته حيث كان مع الملائكة ، فلما أسخط الله تعالى سمي شيطانًا ، وإبليس .

أصناف الجن وتشكلهم بأشكال مختلفة :

روى الطبراني والحاكم والبيهقي وغيرهم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «خلق الله تعالى الجن ثلاثة أصناف : صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض ، وصنف كالريح في الهواء ، وصنف عليهم الحساب والعقاب» .

قال السهيلي : ولعل الصنف الثاني هو الذي لا يأكل ولا يشرب ، إن صح أن الجن لا تأكل ولا تشرب .

وفي رواية أخرى عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «الجن ثلاثة أصناف : صنف لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء ، وصنف حيات وكلاب ، وصنف يحلون ويظعنون» [١] .

هذا ويقال : إن الجن يتطورون ويتشكلون في صور الإنس والبهائم ، والحيات ، والعقارب ، والإبل ، والبقر ، والغنم ، والخيل ، والبغال ، والحمير ، والطير .. [٢] .

على حين يرى القاضي أبو يعلى أن الشياطين لا قدرة لهم على تغيير خلقهم ، والانتقال في الصور .. وذلك لأن انتقالها من صورة إلى صورة إنما يكون بنقض البنية ، وتفريق الأجزاء ، وإذا انتقضت بطلت الحياة ، واستحال وقوع الفعل من الجملة ، وكيف تنقل نفسها ؟

---

(١) راجع الروايتين وغيرهما في : لقط المرجان : ص ١٢ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ص ١٤ وأيضًا : آكام المرجان في أحكام الجان : لأبي عبد الله الشبلي ١٨ ، ١٩ الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ .

أما ما ورد من أقوال للنبي ﷺ عن الكلب الأسود : إنه شيطان ، وعن الإبل : إنها جن ونحو هذا .. فالجواب - كما يقول أبو يعلي - : «إنما قال ذلك على طريق التشبيه لها بالجن ؛ لأن الكلب الأسود أشد الكلاب ضررًا وأقلها نفعًا ، والإبل تشبه الجن في صعوبتها وصولتها» [١] .

مساكن الجن :

تسكن الجن في أماكن عديدة ، وذلك حسب أنواعهم ، فالمؤمنون من الجن أغلبهم يسكنون مع الناس في البيوت ، أما غيرهم فيسكنون في الخلاء أو الأماكن الخربة والأسواق والشقوق ودورات المياه ، والحمامات وأماكن القمامة والمقابر ، والمزابل والصحاري .. وعمومًا يسكنون مواضع النجاسات ؛ ولذلك أمر النبي - ﷺ - أن نستعيذ بالله منهم قبل دخول الخلاء : «إن هذه الحشوش مُحْتَضَرَة فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل : اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث» وهم ذكور الجن وإناثهم . والحُشُوش : جمع حُشّ وهو الكَنِيف ، ومعنى مُحْتَضَرَة : أي : يحضرها الجن .. [٢] .

***

(١) لقط المرجان : ص ١٦ ، وانظر غرائب وعجائب الجن : للشبلي ص ٤ وما بعدها .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى : لابن تيمية ١٩/٤٠ - ٤١ طبعة مؤسسة قرطبة ، وآكام المرجان في أحكام الجان ص [illegible] ، وكيفية إخراج الجان من جسم الإنسان ص ٣٢ المكتبة الثقافية - بيروت .

المبحث الثاني

إثبات الجن ، والخلاف فيه :

كان ابن حزم الظاهري قد أجمل بعض مسائل التوحيد - في أول كتاب المحلى - ومنها : كل ما في القرآن من خبر عن نبي من الأنبياء أو مسخ أو عذاب أو نعيم أو غير ذلك فهو حق على ظاهره ، لا رمز في شيء منه ؛ قال تعالى : ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وقال تعالى : ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ ..

ومنها أيضًا : أن الملائكة حق ، وأنهم خلقوا كلهم من نور ، وخلق آدم من ماء وتراب ، وخلق الجان من نار .. فعن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : «خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم» .

ثم قال ابن حزم : «مسألة : وأن الجن حق ، وهم خلق من خلق الله عز وجل ، فيهم الكافر والمؤمن ، يروننا ولا نراهم ، يأكلون وينسلون ويموتون ؛ قال الله تعالى : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ وقال تعالى : ﴿وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ وقال تعالى حاكيًا عنهم أنهم قالوا : ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ وقال تعالى : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ وقال تعالى : ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي﴾ وقال : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ وقال تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ .. وعن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تستنجوا بالعظام ولا بالروث فإنهما زاد إخوانكم من الجن» [١] .

ومن جهة أخرى ذكر إمام الحرمين أن كثيرًا من الفلاسفة وجماهير القدرية

---

(١) المحلى : ١/١٣ ، ١٤ طبعة المكتب التجاري - بيروت .

وكافة الزنادقة قد أنكروا الشياطين والجن رأسًا ، أي : ألبتـة ، ثم قال : «ولا يبعد لو أنكر ذلك من لا يتدبر ولا يتشبث بالشريعة ، وإنما العجب من إنكار القدرية ، مع نصوص القرآن ، وتواتر الأخبار ، واستفاضة الآثار» [١] .

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني : «وكثير من القدرية يثبتون وجود الجن قديمًا ، وينفون وجودهم الآن ، ومنهم من يقر بوجودهم ويزعم أنهم لا يُرَوْنَ لرقة أجسادهم ونفوذ الشعاع فيها . ومنهم من قال : إنما لا يرون لأنهم لا ألوان لهم» [٢] ثم قال إمام الحرمين : «والتمسك بالظواهر والآحاد تكلف منا مع إجماع كافة العلماء في عصر الصحابة والتابعين على وجود الجن والشياطين ، والاستعاذة بالله تعالى من شرورهم ، ولا يُرَاغِم مثل هذا الاتفاق متدينٌ متشبث بمسكة من الدين» [٣] .

ونقل أبو عبد الله الشبلي عن القاضي عبد الجبار [٤] قوله : «اعلم أن الدليل على إثبات وجود الجن السمع دون العقل ، وذلك أنه لا طريق للعقل إلى إثبات أجسام غائبة ؛ لأن الشيء لا يدل على غيره من غير أن يكون بينهما تعلق كتعلق الفعل بالفاعل ، وتعلق الأعراض بالمَحَالّ .... ولو علم ذلك باضطرار لما جاز أن يختلفوا في ذلك ، بل لم يجز أن يشكوا فيه لو شككهم فيه مشكك ... إلى أن قال : والذي يدل على إثباتهم آيٌ كثير في القرآن تغني شهرتها عن ذكرها . ويدل أيضًا على إثباتهم ما علمناه باضطرار من أن النبي ﷺ كان يتدين بإثباتهم ، وما روي عنه في ذلك من الأخبار والسنن الدالة عل إثباتهم أشهر من أن يشتغل

---

(١) غرائب وعجائب الجن : للشبلي ص ١٩ .

(٢) ، (٣) المصدر السابق : الموضوع نفسه . وآكام المرجان : ٣ ، ٤ .

(٤) وكنيته أبو الحسين (ت ٤١٥ هـ) وهو من أكبر رءوس المعتزلة وصاحب كتاب ، (شرح الأصول الخمسة) وهي أصول المعتزلة ، وكتاب : (تنزيه القرآن عن المطاعن) و (المغني في أبواب التوحيد والعدل) .. وانظر : عقد المرجان فيما يتعلق بالجان : للإمام علي بن برهان الحلبي الشافعي بتحقيق مصطفى عاشور ص ٢٦ .

بذكرها» [١] .

ويذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن أحدًا من طوائف المسلمين وأهل الكتاب لم يخالف في وجود الجن ، بل إنه يقرر أن جمهور طوائف الكفار على إثبات الجن ، وإن وجد في أهل الكتب من اليهود والنصارى من ينكر ذلك فكما يوجد في المسلمين - كالجهمية والمعتزلة - من ينكر وجودهم ، ولكن جمهور الطائفة وأئمتها مقرون بوجودهم ، وذلك لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء عليهم السلام تواترًا معلومًا بالضرورة [٢] .

فكأننا - إذًا - أمام قلة من الناس تنكر وجود الجن كليًا ، ويزعم بعضهم أن المراد بالجن أرواح الكواكب ، وقيل : هم نوازع الشر في النفس الإنسانية وقواها الخبيثة ، كما أن المراد بالملائكة نوازع الخير فيهم [٣] .

وبعض الباحثين يرى أن الجن هم الجراثيم والميكروبات التي كشف عنها العلم الحديث ، بل إننا نجد من يجعل الجن والملائكة عالمًا واحدًا لا فرق بينهما ، وحجته في ذلك أن كليهما مستتر عن الناس . ومن هذا المنطلق فقد أدخل في الجن من يتخفى من عالم الإنسان في إيمانه وكفره ، وخيره وشره [٤] .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا : إنه يصح أن يقال : إن الأجسام الحية الخفية التي عرفت في هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة ، وتسمى بالميكروبات يصح أن تكون نوعًا من الجن ، وقد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض . قلنا : ذلك في تأويل ما ورد من أن الطاعون من وخز الجن . على أننا نحن المسلمين لسنا في حاجة إلى النزاع فيما أثبته العلم وقرره الأطباء ... فنحمد الله تعالى على أن القرآن

---

(١) غرائب وعجائب الجن : ص ٢٠ .

(٢) انظر مجموع الفتاوى : ١٩/١٠/٣٢ ، وآكام المرجان : ٥ .

(٣) راجع : مجموع الفتاوى ٢٤/٢٨٠ ، وعالم الجن والشياطين : ص ١٢ ، ١٣ .

(٤) انظر المصدر السابق : ١٣ ،وغرائب وعجائب الجن : ٢٠٩-٢١٢ ، والجن والشياطين مع الناس:٩ .

أرفع من أن يعارضه العلم (١) .

فإن احتج بعضهم بما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس أنه كان ينكر مخاطبة الرسول - ﷺ - للجن ، وتكليمهم له ، أو أن أول مرة استمعوا فيها للقرآن لم يشعر بهم النبي ﷺ ، ثم تتابعت وفودهم عليه ﷺ في مكة والمدينة فتلا عليهم القرآن ، ودعاهم إلى عبادة الله رب العالمين ، فيجاب عن ذلك بأن الإنكار هنا للمشافهة ، لا للجن ، ثم إن غير ابن عباس كابن مسعود مثلاً يثبت مشافهة الرسول ﷺ للجن ، ومن حفظ حجةٌ على من لم يحفظ ، والإثباتُ - هنا - مقدمٌ على النفي لمخالفته لمعهود الأصل ؛ ولأنه يتأيد بما قد يصل إلى حد التواتر من أخبار مخاطبته ﷺ الجن ، ودعائه إياهم (٢) .

فإن قيل : أخبر الله تعالى أن الجن من نار ـ كما في قوله تعالى : ﴿وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ (٣) ـ ثم أخبر أيضًا أن الشهب تضرهم وتحرقهم (٤) : فكيف تحرق النار النار ؟ يمكن الجواب عن ذلك بأن الله تعالى أضاف الشياطين والجن إلى النار كما أضاف الإنسان إلى التراب والطين والفخار .. ونحو هذا ، والمراد به في حق الإنسان : أن أصله الطين وليس الآدمي طينًا حقيقة لكنه كان طينًا أو هو مركب من عناصر الطين ، كذلك الجان كان نارًا في الأصل ، بدليل قول النبي ﷺ : «عرض لي الشيطان في صلاتي فخنقته فوجدت برد ريقه على يدي ، ولولا دعوة أخي سليمان عليه السلام لقتلته» وفي رواية : «ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا فتنظروا إليه فذكرت قول سليمان : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ فرده الله خاسئًا» كما ورد أنه ﷺ رأى عفريتًا

---

(١) تفسير المنار : ٣/٨١ .

(٢) وقد أورد الحافظ ابن كثير طائفةً لا بأس بها من هذه الأخبار في تفسير سورة الأحقاف ، وانظر غرائب وعجائب الجن ص ٦٨- ٨٥ ، وعالم الجن والشياطين من الكتاب والسنة : ١٢- ٢٠ .

(٣) الآية : ٢٧ / الحجر . وبمعناها الآيات : ١٢ / الأعراف ، ٧٦ / ص ، ١٥ / الرحمن .

(٤) اقرأ الآيتين : ٨ ، ٩ / الجن .

من الجن ـ ليلة الإسراء ـ يطلبه بشعلة من نار ..

ودلالة ذلك «أنهم لو كانوا باقين على عنصرهم الناري ، وأنهم نار محرقة لما احتاجوا إلى أن يأتي الشيطان أو العفريت منهم بشعلة من نار ، ولكانت يد الشياطين أو العفريت أو شيء من أعضائه إذا مس ابن آدم أحرقه كما يحرق الآدمي بالنار الحقيقية بمجرد المس ، فدل على أن تلك النار انغمرت في سائر العناصر حتى صار البرد ربما كان هو الغالب في بعض الأحيان إما للأعضاء نفسها أو لما تحلل من البدن كاللعاب ، كما قال النبي ﷺ : «حتى وجدت برد لسانه على يدي ، وفي رواية : حتى وجدت برد لعابه» [1] .

ويبقى القول بأن هؤلاء المنكرين وأمثالهم ليس لديهم حجة يعول عليها ، أو يمكن الاطمئنان إليها في نفيهم وجود الجن .. وغاية ما عندهم هو عدم العلم بوجودهم .. على أن عدم العلم ليس دليلاً يعتمد عليه في نفي ما يعلمه الآخرون ، وكثير من الناس يجهلون ما يحيط بهم من عوالم وأسرار كونية ، ولم يكن هذا الجهل مسوغًا لإنكارها أو حتى المماحكة في وجودها . والإنسان قبل المكتشفات الحديثة والمخترعات العلمية الدقيقة لم يكن لديه علم بوجودها ، وها هي اليوم براهين ساطعة ، وحقائق ثابتة لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يشكك في وجودها وآثارها .. ولذلك نجد العقلاء من المفكرين وغيرهم لا ينفون الشيء لعدم علمهم به ، بل كنا نجد من أئمتنا السابقين - رضي الله عنهم - من يفوض العلم لله تعالى ، حتى فيما يعلمونه يقينًا أو بغلبة الظن ، وهم يقرءون قوله عز وجل : ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [2] في مقابل أولئك النفر من الكفار والمشركين الذين كذبوا بالقرآن وآياته ، كما فعل مَنْ قبلهم مِن الكفار في الأمم السابقة حين كذبوا رسل الله وأنبياءه وما أنزل عليهم ؛ لأن معرفتهم البشرية قاصرة ومحدودة ، وفي ذلك يقول

---

(١) غرائب وعجائب الجن : ٣٢ ، وراجع : آكام المرجان في أحكام الجان : ١٤ ، وعالم الجن والشياطين من الكتاب والسنة : ٢٧ .

(٢) من الآية : ٨٥ / الإسراء .

القرآن الكريم : ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (١)..

وجملة القول - الذي لا ينبغي أن يكون محل جدل وريب - هو أن الجن عالم ثالث مخالف لعالم الملائكة والبشر ، وأنهم متواجدون في هذا الكون ، ثم هم مخلوقات واعية ، عاقلة مدركة ، لذلك فقد كلفوا بالأوامر والنواهي ، وكان منهم المؤمن والكافر (٢) والأدلة على إثبات وجودهم عديدة ومتنوعة .. نذكر منها :

أولاً : من القرآن الكريم :

فقد سمى الله - في قرآنه المجيد سورة كاملة باسمهم ، وهي سورة الجن ، وأولها : ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ .

كما ذكرهم الله عز وجل في آيات أخر ، إخبارًا عن بعض أنواعهم وأوصافهم وسلوكهم ، ومجموع المواضع التي ورد فيها لفظ (الجان ، والجن ، والجنة) تسع وثلاثون .. نذكر منها قوله تعالى : ﴿وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ وقوله : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ وقوله : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٣) .

أما ألفاظ (الشيطان والعفريت والقرين) والمارد - وهي إما أسماء للجن ، أو صفات له - فمجموعها في القرآن تسع وتسعون مرة (٤) .

---

(١) الآية : ٣٩ / يونس .

(٢) انظر : غرائب وعجائب الجن : ٦٢ ، وعالم الجن والشياطين : ص ١٣ ، والجن والشياطين مع الناس : ص ٩ .

(٣) الآيات على الترتيب المذكور : ١٣٠ / الأنعام ، ١١٩ / هود ، ٢٧ / الحجر .

(٤) لو راجعت (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) فستجد أن اسم الشيطان - مفرده ، وجمعه - ورد في ثمان وثمانين موضعًا ، والقرين في سبعة ، ومارد في ثلاثة ، وعفريت مرة واحدة .. وكذلك لفظ الجان ذكر سبع مرات ، والجن في اثنتين وعشرين ، والجنة عشرة .

ثانيًا : من السنة :

وبقدر ما رأيناه من عناية القرآن الكريم بالجن والحديث عنه في آيات كثيرة فإنا نجد اهتمامًا أكبر به في السنة المطهرة ، حيث أخبر الرسول ﷺ ببعض أخبارهم وأحوالهم مثل تلك الأحاديث التي تكلمت عن مساكنهم وطعامهم وشرابهم ، وأشكالهم وقدراتهم ، وخلقهم ومؤمنهم وكافرهم ، وعلاقتهم بالإنسان ... إلى غير ذلك من المجالات التي وجدناها في السنة عن الجن وأحوالهم ، والتي سيعرض هذا البحث - إن شاء الله تعالى - للكثير منها ، باعتبار أن السنة النبوية من المصادر الرئيسة الموثقة في موضوع الجن وما يتعلق به ، بما في ذلك تفسير الآيات الكريمة التي ورد فيها إخبار من الله تعالى عن خلق الجن وبعض أنواعهم وأوصافهم وسلوكهم ، كما أشرنا في الفقرة السابقة .

ونقتبس هنا بعض الأخبار والآثار المتعلقة بالجن في السنة النبوية ؛ فنقول :

١- روي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن» قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال : «نعم ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير» ، وفي بعض الروايات : «وكل الله به قرينه» وفي ثالثة : «وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة» (١) .

٢- وثبت في الصحيحين عن أنس في قصة زيارة صفية «أم المؤمنين رضي الله عنها» للنبي ﷺ وهو معتكف ، وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها .. فلقيه رجلان من الأنصار ، فأسرعا .. فقال رسول الله ﷺ : «على رِسْلِكُمَا ، إنها صفية بنت حيي» فقالا : سبحان الله يا رسول الله فقال : «إن الشيطان يجري من ابن

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب صفة القيامة والجنة والنار - باب : تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس ، وأن مع كل إنسان قرينًا .

آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا» أو قال «شرًا» .

٣- روى مسلم وأحمد عن ابن مسعود قال : كنا مع النبي ﷺ ففقدناه ، فالتمسناه في الأودية والشعاب فقلنا : استطير .. اغتيل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء ، فقلنا يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فقال : «أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن» قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم . وسألوه الزاد فقال : «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا ، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم» قال رسول الله ﷺ : «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم» (١) .

٤- من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان رسول الله يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنسان فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما (٢) .

وفي السنة وقصصها آثار وأخبار كثيرة عن الجن وأحوالهم ، وسوف نورد طائفة لا بأس بها منها ، في مواضعها من هذه الدراسة إن شاء الله تعالى .

على أن اهتمام القرآن والسنة بهذا الجانب الغيبي أساسه - فيما يبدو لي - مجموعة من الاعتبارات ، ونستطيع أن نجملها في أمرين :

أ- أن الإيمان بالغيب من مستلزمات الإيمان بالله ، والإيمان بعالم الجن وجه أو أصل من أصول الإيمان بالغيب ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾ (٣) فلا ينكر عالم الجن أو عالم

(١) هذا الحديث وما قبله - وأحاديث أخرى - نجدها في تفسير ابن كثير ١٦٢/٤ - ١٧٥ ، ٥٧٥ .

(٢) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح (تفسير ابن كثير ٤١٠/٤، ٥٧٣) .

(٣) الآيات : ١-٣ / البقرة .

الغيب إلا واحد من اثنين : إما كافر بالله عز وجل ، أو جاهل ناقص الإيمان ، لذا كان واجبًا على كل مسلم أن يؤمن بعالم الجن إيمانًا صادقًا ، حتى لو كان يجهل الكثير عن أحوالهم ، فالكون مليء بالأمور التي لا نراها ولا نسمعها ، ونسلم بوجودها ..

ب- أن المعلومات التي جاء بها الوحي - قرآنًا كان أو سنة - عن حياة الجن وقدراتهم عظيمة النفع ، ذلك أنها تتحدث عن عالم من العقلاء ، يخالطوننا في أرضنا ومساكننا وطعامنا ولا نراهم ولا نشاهدهم ، ولا سبيل للتعرف عليهم تعرفا صحيحًا إلا من طريق الوحي .. ومع ذلك فثمة أدلة أخرى تعيننا في إثبات وجود الجن .

ثالثًا : التواتر :

كما قال ابن تيمية : «لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن ، ولا في أن الله أرسل محمدًا - ﷺ - إليهم ، وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن ، أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم كإقرار المسلمين ، وإن وجد فيهم من ينكر ذلك ، فكما يوجد في بعض طوائف المسلمين - كالجهمية والمعتزلة - من ينكر ذلك وإن كان جمهور الطائفة وأئمتها مقرون بذلك .

وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء عليهم السلام تواترًا معلومًا بالاضطرار ، ومعلوم بالاضطرار أنهم أحياء فاعلون بالإرادة ، بل مأمورون منهيون ، ليسوا صفات وأعراضًا قائمة بالإنسان أو غيره كما يزعمه بعض الملاحدة ، فلما كان أمر الجن متواترًا عن الأنبياء عليهم السلام تواترًا ظاهرًا يعرفه العامة والخاصة لم يكن لطائفة من طوائف المؤمنين بالرسل أن تنكره [1] .

وقال أيضًا : إن جميع طوائف المسلمين يقرون بوجود الجن ، وكذلك

---

(١) مجموع الفتاوى : ١٠/١٩ وأيضا : ص ٣٢ .

جمهور الكفار كعامة أهل الكتاب ، وكذلك عامة مشركي العرب وغيرهم من أولاد سام ، والهند وغيرهم من أولاد حام ، وكذلك جمهور الكنعانيين واليونانيين وغيرهم من أولاد يافث ، فجماهير الطوائف تقر بوجود الجن ، بل يقرون بما يستجلبون به معاونة الجن من العزائم والطلاسيم ، سواء كان ذلك سائغًا عند أهل الإيمان أو كان شركًا فإن المشركين يقرءون من العزائم والطلاسم والرقى ما فيه عبادة للجن وتعظيم لهم ... وقد كان للعرب ولسائر الأمم من ذلك أمور يطول وصفها ، وأمور وأخبار العرب في ذلك متواترة عند من يعرف أخبارهم من علماء المسلمين وكذلك عند غيرهم ، ولكن المسلمين أخبر بجاهلية العرب منهم بجاهلية سائر الأمم [١] .

رابعًا : المشاهدة والرؤية :

فقد شاهد كثير من الناس الجن في صور وأحوال مختلفة ، حدث هذا في عصرنا وفي العصور السابقة ، وإن كان بعض الذين شاهدوا أشكالاً وأشياء أو سمعوا أصواتًا - غريبة أو غير مألوفة لهم - لم يعرفوا أنها شكل من أشكال الجن وأحواله ، ومن ثم زعموا أن ما شاهدوه أو سمعوه إما أرواح ، أو رجال الغيب أو أطباق الفضاء ..

هذا وقد ثبت عن كثير من الثقات - فضلاً عما تقرر في الفقرة السابقة - التيقن من وجود الجن ، ومشاهدتهم وأحاديثهم وأشعارهم «ومن الناس من كلمهم وكلموه ، ومن الناس من يأمرهم وينهاهم ويتصرف فيهم .. وهذا يكون للصالحين وغير الصالحين ، ومن شاهد بعض ما يفعله المصروع من شرب كميات كبيرة من المياه ، أو حمل أشياء ثقيلة أو الحديث بلغة لم يعرفها من قبل لتأكد من وجود الجن» [٢] .

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٣ ، وانظر غرائب وعجائب الجن : للشبلي ص ٢١ .

(٢) الجن والشياطين مع الناس ص١٠، وثمة حوادث واقعية تجدها في ص ٨٣ وما بعدها من الكتاب نفسه ، وتجد شيئًا من ذلك في : غرائب وعجائب الجن : ١٢٨ وما بعدها . وعالم الجن والشياطين : ١٥ ، والعلاج الرباني للسحر والمس الشيطاني : لمجدي الشهاوي : ١٦- ٣٢ مكتبة القرآن .

وتحدثنا الآثار الصحيحة والروايات الموثقة عن أخبار الجن بمبعث النبي ﷺ وهجرته المباركة ودعوته عليه السلام لهم ، وتوافد جن أهل نصيبين ونينوى وغيرهما عليه - ﷺ - في مكة والمدينة . وأيضًا حديثه مع عمر بن عبد العزيز وسواد بن قارب - الذي أسلم بعد أن دعاه رئيه من الجن [١] - ثم بكاء الجن على بعض الصحابة والعلماء والخلفاء ، ورواية الشعر - أو إلقائهم الشعر على ألسنة الشعراء ، وكذلك تعرضهم لبعض الأنبياء عليهم جميعًا السلام [٢] ..

خامسًا : الأدلة العقلية :

حيث يمكن الاعتماد على بعض المسلمات والبراهين العقلية والواقعية في إثبات وجود الجن ، فتتضافر الأدلة العقلية والنقلية في الكشف عن العالم الخفي ، عالم الجن .. وفيما يلي نسوق طرفًا من هذه الأدلة العقلية :

١- إن عدم رؤية الشيء لا تدل على عدم وجوده ، فالريح أو الكهرباء (مثلاً) لا تُرى بالعين ، ورغم ذلك يعرفها جميع الناس ويصدقون وجودها وآثارها ، وكنا حتى عهد قريب لا نرى بالعين المجردة كثيرًا من الأشياء حولنا ، وأصبحت الآن ترى بوضوح بواسطة أجهزة خاصة .

٢- إن اجتماع الضدين مستلزم لنفي العقل له كالوجود والعدم ، وكذلك اجتماع النقيضين يستلزم نفي العقل له كوجود الظلمة والنور معًا .. ولأن وجود الجن لا يستلزم أيًا من ذلك فإن العقل لا ينفي وجوده .

٣- إن أثر الشيء يدل على وجوده - كما يدل لذلك قانون السببية - وللجن آثار كثيرة ، يلزم منها إثبات وجودهم وأهم هذه الآثار هي :

***

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ١٦٨/٤ .

(٢) انظر مثلاً : لقط المرجان : ٤٦ ، ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٨٦ ، ٢٠٣ ، وغرائب وعجائب الجن : ص ١٧٧ وما بعدها .

أ - الصرع : ونعني به هنا [١] الصرع غير العضوي ، وهو ما تتسبب فيه الأرواح الشريرة .. الجن والشياطين ، والتي يقف أمامها الطب الحديث وعلم النفس عاجزين على الرغم من التقدم العظيم في هذين المجالين .. إن هذا الصرع من أبرز مظاهر وجود الجن ، وسيأتي الكلام عليه بتفصيل أكثر فيما يأتي لصلته المباشرة والقوية بموضوع هذا البحث .

ب - تكلم الجن على لسان الإنس الذي يتلبس به - في نظر من يقول بالتلبس من جمهور العلماء وغيرهم - بصوت يختلف عن صوت هذا الإنسان والإخبار عن أمور لا يعرفها .

ج - خروج الجن من جسم الإنسان المصروع أو الممسوس إذا عالجه أحد بالقرآن الكريم .

د - الوسوسة للإنسان بارتكاب بعض الجرائم كالزنا والقتل والتفريق بين المرء وزوجه وغير ذلك من الموبقات [٢] .

وبتلك الأدلة النقلية والعقلية ثبت وجود هذا العالم الخفي ، عالم الجن .. يقول الشيخ أبو بكر الجزائري في كتابه «عقيدة المؤمن» بعد أن أورد أدلة وجود الجن : «وبتلك الأدلة العقلية والنقلية التي سقناها كان الإيمان بوجود الجن والشياطين واجب حتمي - بل كان جزءًا من عقيدة المؤمن لا يتجزأ ، وكل محاولة لإخلاء العقيدة الإسلامية من التصديق بوجود عالم الجن والشياطين يُعَدُّ كفرًا صُرَاحًا مخرجًا من الملة المحمدية ؛ لأجل ما في ذلك من التنكر للعقل ورفض بدهياته وتكذيب الله تعالى في إخباره ، ولتكذيب الرسول ﷺ ، وكفى بتكذيب الله تعالى وتكذيب رسول الله ﷺ كفرًا وباطلاً» [٣] .

---

(١) لنا وقفة أخرى مع الصرع وأسبابه وكيفية أو طرق علاجه .

(٢) كيفية إخراج الجان من جسم الإنسان : لسعيد جاد ، وعلي بدوي ص ٢٥ ، ٢٦ نشر المكتبة الثقافية - بيروت ١٩٩٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٧ .

وهكذا يمكن القول - على وجه الإجمال - ليس في العقل ولا في العلم ما يمنع من وجود روح شرير يحاول إغواء بني آدم ليبتلوا بهم في حياتهم ، والعالم الروحاني عالم واسع ، ولقد ثبت وجوده علميًا . وأيضًا مر على البشرية قرون وأزمان وهم يجهلون الميكروبات وأثرها في حياتهم ثم اكتشفوها أخيرًا ، فهل حينا كانوا يجهلونها كانت غير موجودة ؟ .. إن الجهل بالشيء لا يعني عدم وجوده (١) .

- ولقد ظهر في الثقافة الغربية علم جديد يسمى (علم دراسة الشياطين) فبعد انتشار الكتب التي تبحث في شياطين الجن وفي وسائل السحر المختلفة لجأ علماء الغرب إلى استخلاص مناهج خاصة بدراسة الشياطين ، ويطلقون على هذا العلم اسم DEMONOLOCY والاسم مشتق من كلمة DEMON يعني شيطان . وهذه الكلمة مشتقة من كلمة DAIMON ومعناها روح . وهذا العلم كما تعرفه دائرة المعارف البريطانية العلمية : يبحث في دراسة الشياطين وفي المعتقدات المتعلقة بها ، كما يبحث في مذهب وجود الشياطين التي تسمى الجن في العالم الإسلامي كما تقول دائرة المعارف المذكورة .

ويؤكد الفلكي عبد العظيم شندي بأنه على الرغم من الفارق الشاسع بين كيفية خلق الجن وخلق الإنس ، وعلى الرغم من أن البشر تستحيل عليهم رؤية الجن ، إلا من حباه الله تعالى بمقدرة على ذلك من أنبيائه ورسله وأوليائه الصالحين . على الرغم من ذلك فهناك وقائع كثيرة يتناقلها الناس عن وجود علائق متباينة بين أفراد من الإنس وأفراد من الجن ، منها علائق عاطفية انتهت بالزواج ! .

ولعل ذلك يرجع إلى أن أفراد الجن في مقدورهم أن يتخذوا أي شكل أو أية صورة يريدونها كطائر أو ثعبان أو غزال أو امرأة جميلة .. وكانت قصة النبي سليمان بن داود عليهما السلام ، التي ذكر القرآن الكريم تفصيلات كثيرة عنها سببًا أو ملهمًا للعديد من كتاب القصص الخيالية ، ولا سيما قصص (ألف ليلة وليلة) فهذه

---

(١) راجع : العقائد الإسلامية للشيخ السيد سابق ص ١٤٣ دار الكتاب العربي - بيروت .

القصص وغيرها زاخرة بوقائع الحب والغرام بين رجال من الإنس ونساء جميلات من الجن ، والعكس .

ومن حقنا أن نتساءل عن مدى الصحة في مثل هذه القصص ، أو على الأقل لنا أن نتساءل عما إذا كان هناك بعض الوقائع التاريخية التي تثبت في أذهان الناس بطريقة أو بأخرى بحيث تدفعنا إلى القول بجواز حدوث عواطف متبادلة بين الإنس والجن [1] ؟

ولما كانت هذه المسألة ليست من أهداف هذه الدراسة ولا من مفرداتها ـ فإني أكتفي بالإشارة إلى ما ورد في كتاب (الكامل في التاريخ) لابن الأثير، و(البداية والنهاية) لابن كثير ، وفي تفسير القرطبي وغير ذلك من الكتب : عن زواج والد بلقيس (ملكة سبأ) من إحدى إناث الجن الجميلات .

أيضًا من الأمور التي جعلت بعض الناس يعتقدون في جواز نشوء علاقة عاطفية ـ أو أكثر من عاطفية ـ بين الجن والإنس ما ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة الرحمن ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ﴾ وما قاله بعض المفسرين في ذلك ، مع تفسير قوله تعالى : ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ وما ورد في السنة من آداب الجماع وأدعيته ؛ من مثل : التسمية ، ودعاء «اللهم جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا» [2] ونحو هذا كثير [3] .

إننا نعيش حياتنا مع الواقع مسلمين به ؛ لأننا ندركه بحواسنا ـ سواء باللمس أو الشم أو التذوق أو الرؤية أو السمع ـ وهذا وضع لا خلاف عليه ؛ لأن الحقائق المادية إنما تعرف بإحدى هذه الحواس الخمس أو بآثارها ..

---

(١) ملحق مجلة الوطن الكويتية : العدد ٦٧٠٠ ص ١١ الثلاثاء ١٩٩٤/١٠/٤ .
(٢) متفق عليه .. (راجع مثلا : نيل الأوطار : ٦/٣٤٤) .
(٣) انظر في حكم نكاح الإنس والجن : مجموع الفتاوى : ٣٩/١٩ وآكام المرجان : ٦٦-٧٧ وغرائب وعجائب الجن : ١٠٥-١٢١ ، وزواج الجان من بني الإنسان : ٢٥ وما بعدها . وحوار مع الشيطان : ٦١ ، وعالم الجن والشياطين من الكتاب والسنة : ٣٩-٤٥ ، وعلوم الجان : لمحمد مغاوري : ٣٩ .

أما الغيبيات فهي التي وقف الإنسان أمامها حائرًا ما بين مصدق ومكذب ، ولكلٍّ وجهة هو موليها . المهم أن التصديق بالأمور الغيبية يتأثر بمصدرها أو بالقوة التي أعلنت عنها أو أخبرت بها ؛ فمثلا : الغيبيات التي أمرنا الله عز وجل أن نؤمن بها ليست محلاً للخلاف بين المسلمين ؛ لأن الآمر والمخبر هو الله ، الذي آمنا به ، وصدقنا نبيه ، والتزمنا منهج كتابه .. وقد ورد في وصفه : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾(١) وفي السورة ذاتها : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٢) .

وتشمل هذه الغيبيات : الملائكة ، والأنبياء السابقين ، والجن ، والجنة ، والنار ، والحساب ، والميزان ، والصراط .. وغير هذا من كل ما هو غيبي في القرآن والسنة ، وآمنا به وصدقناه .

ومنها ـ كما ترى ـ الإيمان بالجن ، وأنهم مخلوقون لله بطبيعة معينة ، وأنهم مخلوقون للغاية نفسها التي خلق الإنسان من أجلها (٣)، فكان منهم المؤمنون الصالحون ومنهم دون ذلك ..

ومن المسائل ذات الصلة بخلق الجن وعلاقته ببني آدم على العموم ، مسألة (تلبس الجن بالإنسان) أو (دخول الشيطان في جسد الإنسان) أو (المس الشيطاني) بين الإثبات والنفي ، ومظاهر ذلك عند المثبتين ، وطرائق العلاج منه .. إلى غير ذلك ؛ فهي قضية كانت وما تزال تشغل فكر وعقل كثير من الباحثين في الغيبيات «وهي وإن كانت تحتل هذه الأيام صدارة الأبحاث ، بل أصبحت من

---

(١) الآيات : ٢-٤ / من سورة البقرة .
(٢) الآية : ٢٨٥ / من سورة البقرة .
(٣) اقرأ مثلاً الآية : ٥٦ / الذاريات .

أكبر شواغل المجتمع (المس الشيطاني) .. إلا أنها قضية قديمة عانت منها في الماضي والحاضر مجتمعات غيرنا .. وكانت بعض المجتمعات القديمة الجاهلة عندما يتلبس شيطان بجسد إنسان يحرقون هذا الإنسان ليموت معه الشيطان . حدث هذا في جنوب أفريقيا ، وبلاد الهند ، وغيرهما» [1] .

وكنا ونحن صغار نسمع الكثير من القصص والأساطير حول هذه المسألة ؛ بعضها يحكى على سبيل المشاهدة والواقع ، وبعضها الآخر على أنه حكاية تاريخية ، ولما تقدم العمر بنا قرأنا وسمعنا عن هذه وتلك الكثير .. فهل المس الشيطاني أو تلبس الجن بدن الإنسان حقيقة أم خيال ؟ الجواب عن ذلك فيما يلي :

***

المبحث الثالث

مسألة دخول الجن بدن المصروع والخلاف فيها

يقول ابن القيم في كتابه «زاد المعاد في هدي خير العباد» : «الصرع صرعان : صرع من الأرواح الخبيثة الأرضية ، وصرع من الأخلاط [٢] الرديئة . والثاني هو الذي يتكلم فيه الأطباء في سببه وعلاجه . وأما صرع الأرواح فأئمتهم وعقلاؤهم يعترفون به ولا يدفعونه ، ويعترفون بأن علاجه بمقابلة الأرواح الشريفة الخيرة العلوية لتلك الأرواح الشريرة الخبيثة فتدافع آثارها وتعارض أفعالها وتبطلها ، وقد نص على ذلك «بقراط» في بعض كتبه ، فذكر بعض علاج الصرع .. وقال : «هذا إنما ينفع في الصرع الذي سببه الأخلاط والمادة ، وأما الصرع الذي يكون من الأرواح فلا ينفع فيه هذا العلاج .

أما جهلة الأطباء وسقطهم وسفلتهم ، ومن يعتقد بالزندقة فضيلة ، فأولئك ينكرون صرع الأرواح ولا يقرون بأنها تؤثر في بدن المصروع ، وليس معهم إلا الجهل ، وإلا فليس في الصناعة الطبية ما يدفع ذلك والحس والوجود شاهد بذلك

---

(١) حوار مع الشيطان ... : ص ١٧ .

(٢) الأخلاط أو أخلاط البدن هي التي تسمى بالأمزجة ، والمزاج : استعداد جسمي عقلي خاص ، وكان القدماء يعتقدون أنه ينشأ عن أن يتغلب في الجسم أحد العناصر الأربعة : وهي : الدم ، والصفراء ، والسوداء ، والبلغم ، ومن ثم كانوا يقولون بأربعة أمزجة ، هي ، الدموي ، والصفراوي ، والسوداوي ، والبلغمي . أما المحدثون من علماء النفس فيوافقون القدماء على أن الأمزجة ترجع إلى مؤثرات جسمانية ، ولكنهم يختلفون في عدد الأمزجة وأسمائها ، إذ يعتدون بالإفرازات التي تفرزها الغدد الصم كالغدة الدرقية ، والغدة الكظرية ، ويجعلونها المؤثرات الأساسية في تكوين المزاج .. (راجع : المعجم الوسيط : كلمتي المرة : المزاج) .

وإحالتهم ذلك على غلبة بعض الأخلاط هو صادق في بعض أقسامه لا في كلها .

وقدماء الأطباء كانوا يسمون هذا الصرع المرض الإلهي ، وقالوا : إنه من الأرواح . وأما «جالينوس» وغيره فتأولوا عليهم هذه التسمية ، وقالوا : ما سموه بالمرض الإلهي لكون هذه العلة تحدث في الرأس فتضر بالجزء الإلهي الظاهر الذي مسكنه الدماغ . وهذا التأويل نشأ لهم من جهلهم بهذه الأرواح وأحكامها وتأثيراتها . وجاءت زنادقة الأطباء فلم يُثبتوا إلا صرع الأخلاط وحده .. ومن له عقل ومعرفة بهذه الأرواح وتأثيراتها يضحك من جهل هؤلاء وضعف عقولهم .

وعلاج هذا النوع يكون بأمرين : أمر من جهة المصروع ، وأمر من جهة المعالج ، فالذي من جهة المصروع يكون بقوة نفسه ، وصدق توجهه إلى فاطر هذه الأرواح وبارئها ، والتعوذ الصحيح الذي قد تواطأ عليه القلب واللسان ، فإن هذا نوع محاربة ، والمحارب لا يتم له الانتصاف من عدوه بالسلاح إلا بأمرين : أن يكون السلاح صحيحًا في نفسه جيدًا ، وأن يكون الساعد قويًا .. فمتى تخلف أحدهما لم يغن السلاح كثير طائل ، فكيف إذا عدم الأمران جميعًا ، يكون القلب خرابًا من التوحيد والتوكل والتقوى والتوجه ولا سلاح له . والثاني من جهة المعالج بأن يكون فيه هذان الأمران أيضًا حتى إن من المعالجين من يكتفي بقوله : اخرج منه أو بقول : باسم الله أو بقول : لا حول ولا قوة إلا بالله والنبي ﷺ كان يقول اخرج عدو الله أنا رسول الله . وشاهدت شيخنا يرسل إلى المصروع من يخاطب الروح فيه ... وكان يعالج بآية الكرسي ، وكان يأمر بكثرة قراءة المصروع ومَنْ يعالجه بها وقراءة المعوذتين .

ثم يقول : وبالجملة فهذا النوع من الصرع وعلاجه لا ينكره إلا قليل الحظ من العلم والعقل والمعرفة . وأكثر تسلط الأرواح الخبيثة على أهله تكون من جهة قلة دينهم وخراب قلوبهم وألسنتهم من حقائق الذكر والتعاويذ والتحصنات النبوية والإيمانية فتلقى الروحُ الخبيثة الرجلَ أعزل لا سلاح معه ، وربما كان عريانًا فيؤثر فيه هذا ، ولو كشف الغطاء لرأيت أكثر النفوس البشرية صرعى مع هذه الأرواح

الخبيثة ، وهي في أسرها وقبضتها تسوقها حيث شاءت» [١] .

وقد آثرت نقل هذا النص - بتمامه - من كلام ابن القيم ؛ لشموله وإحاطته بأنواع الصرع وأسبابه وموقف العلماء والأطباء وغيرهم منه ، لاسيما ما أطلق عليه صرع الأرواح وإشاراته اللطيفة إلى طرف من علاج هذا النوع من الصرع .

وإذا كان ابن القيم - ويوافقه كثير من العلماء والأطباء - قد حصروا الصرع في نوعين هما :

١- صرع الأخلاط - أو الاختلاط - : وهو علة تمنع الأعضاء الرئيسة عن الأفعال والحركة والانتصاب منعًا غير تام ، وسببه خلط غليظ لزج يسد منافذ بطون الدماغ سدة غير تامة فيمتنع نفوذ الحس والحركة فيه وفي الأعضاء نفوذًا ما ، من غير انقطاع بالكلية . وقد يكون لأسباب أخر كريح غليظ يحتبس في منافذ الروح ، أو بخار رديء يرتفع إليه من بعض الأعضاء ، أو كيفية لاذعة فينقبض الدماغ لدفع المؤذي فيتبعه تشنج في جميع الأعضاء ، ولا يمكن أن يبقى الإنسان معه منتصبًا ، بل يسقط ويظهر فيه الزبد غالبًا ، وهذه العلة تعد من جملة الأمراض الحادة باعتبار وقت وجوده المؤلم خاصة ، وقد تعد من جملة الأمراض المزمنة باعتبار طول مكثها وعسر برئها [٢] .

٢- صرع الأرواح : وهو موضوع هذه الدراسة : فهل لنا أن نتساءل عن أسباب هذا النوع من الصرع ؟

***

---

(١) زاد المعاد : ٣/٨٤ -٨٥ .

(٢) راجع المصدر السابق : ٨٥ ، ونيل الأوطار : ٩/٩٢ .

الفرع الأول : أسباب الصرع أو المس

الذي يبدو لي أن هنالك أسبابًا عديدة له ، وأنه ليس بوسع المرء - مهما أوتي من علم وسعة اطلاع - أن يزعم حصرها ، وتحديدها بدقة ، ومع هذا فسنحاول جاهدين - بعون الله - أن نلم بمجملها في النقاط التالية ، لعلها تكون أقرب إلى الصواب ، مع ملاحظة أنه لا توجد نصوص صريحة في هذا الموضوع ، لكن ثمة أسباب توصل إليها بعض العلماء من خلال الممارسة والتجربة ، نذكر منها :

(أ) البعد التام عن عبادة الله رب العالمين ، فكثيرًا ما نجد المصابين بالصرع ، والملموسين أو الملبوسين - وإن شئت قل : الممسوسين - بأيِّ نوع من أنواع المس مفرطين في أوامر الله عز وجل ونواهيه أو بعيدين عن المنهج الإلهي ، سواء بترك الفرائض والواجبات الدينية .. أو بارتكاب الكبائر والموبقات فيكونون بذلك فريسة للغواية والشيطان ، إما بالمسّ أو الوسوسة أو بأي شكل من أساليب الشيطان في إضلاله للإنسان .

إن الشيطان لا يتمكن من نفس الإنسان إلا إذا أعرض عن هداية الله ، وخرج عن المنهج المرسوم ، فإذا أعرض عن هذا المنهج عاقبه الله بتمكين الشيطان منه فيوجهه وجهة الشر والفساد في كل قول وفعل ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (١) .

ومع التمادي في الغي والضلال يستحوذ الشيطان على النفس الإنسانية حتى يبلغ الإنسان أن يكون من جنود إبليس أو عضوًا في جماعة الشيطان : ﴿اسْتَحْوَذَ

---

(١) الآيات : ٣٦ - ٣٨ / الزخرف .

عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١) .

وحين يصل الإنسان إلى هذا المستوى ، ويهبط إلى هذا الدرك يكون قد بلغ النهاية في الانحطاط الروحي والكفر بذخائر النفس الإنسانية وخالقها .. وفي هذا الدرك تختل المقاييس وتضطرب الموازين وتلتبس الحقائق ، ويعلو سلطان الباطل وتسود شريعة الغاب ، ويتعادى الناس تعادي الحيوانات المفترسة ، ويصبح الإنسان - وهو أبدع ما أنشأته العناية الإلهية - أداة من أدوات الشر والفساد ، وعاملاً من عوامل الهدم والتخريب ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ (٢) بل يصل الإنسان إلى الحالة التي يتبرأ الشيطان فيها منه ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣) .

وحين يقف الاثنان بين يدي الله سبحانه وتعالى يوم الجزاء سيتبرأ كل شيطان من قرينه كأنه لا يعرفه ، كما سجل القرآن هذا الموقف على الشيطان ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ (٤) والقرآن يحذر من الشيطان ويكشف عن عداوته للإنسان في أكثر من آية وموضع ، وحسبنا من ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قِرِينًا﴾ (٥) .

(ب) عدم التمسك بالسنة النبوية وآدابها العامة ، وخاصة تلك الأحاديث والآثار الموجودة في الاستعاذة بالله من همزات الشياطين وحضورهم ، وعند دخول الخلاء ، والجماع ، وسماع نهيق الحمار ، وعند الغضب وآداب الأكل والشرب

---

(١) الآية : ١٩ / المجادلة .

(٢) الآية : ٨٣ / مريم ، وراجع ما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم في تفسيرها (ابن كثير : ١٦٣/٣) .

(٣) الآية : ١٦ / الحشر . وانظر العقائد الإسلامية : ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٤) الآية : ٢٧ / من سورة ق .

(٥) الآية : ٣٨ / من سورة النساء .

وقضاء الحاجة .. ونحو هذا .

فمثلاً علمنا النبي ﷺ أن يقول أحدنا عند دخول الخلاء أو عند قضاء الحاجة : «اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث» (١) لأن الجن والشياطين يسكنون في هذه الأماكن ، فإن لم يتحصن المرء - قبل الدخول - بالأذكار أو الآداب النبوية حضره الجن واطلعوا على عورته (٢) وكان فريسة للشيطان ، ومستحقًّا لمقت الله عز وجل .

ونحذر أيضًا من رفع الصوت عند قضاء الحاجة «لأن كثيرًا ممن يأتون للعلاج يكون سبب مسهم تكلمهم ورفع صوتهم في أماكن قضاء الحاجة» (٣) .

(ج) أذية الإنس للجن ، وذلك بفعل شيء يضره أو يكرهه كأن يُلقي إنسان مثلاً بماء ساخن على الأرض ، فينزل على جني - من غير قصد طبعًا - فيقتله أو يحرقه أو يؤلمه على أقل تقدير ، وحينئذ يجد الجن وقبيله سبيلاً أو مبررًا لصرع هذا الإنسان بمسه انتقامًا أو عقابًا «والشياطين من الجن بطبعهم المؤذي النابع من الشر لا يتهاونون في إيذاء الإنسان ، فتراهم يؤذون الفاعل إيذاء يفوق ما قدم وفعل معهم ، وإن كان الذي آذاهم لا يدري ما صنع بهم ولم يشعر» (٤) .

هذا وقد تكون أذية الإنسان للجن بالسقوط عليه من مكان مرتفع أو التبول أو التغوط عليه ، أو قتل - أو ضرب - كلب أو قطة أو حية أو أي حيوان تصور الجن بصورته (٥) .

***

(١) رواه الشيخان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (نيل الأوطار : ٧٢/١) .

(٢) آكام المرجان ص ٢٤ .

(٣) كيفية إخراج الجان ص ٥٩ .

(٤) الجن والشياطين مع الناس ١٢٦ - ١٢٧ .

(٥) وراجع : كيفية إخراج الجان ص ٥٩ ، والعلاج الرباني ... ص ٤٩ ، ٥٠ ، وتسليط الصولجان على شياطين الإنس والجان : ٧٤ وما بعدها .

(د) عشق الجن للإنسي : قد يقع الجني في هوى أو عشق أحد أفراد بني الإنسان ، ولا سيما إذا نام كئيبًا أو مكروبًا فيتردد الجن عليه في منامه ، وكأنه المنقذ له من هذا الهم ، أو المخلص له من ذاك الكرب وأسبابه .. وتتكرر هذه الرؤية المنامية كثيرًا بحيث لا يمكن الاستغناء عنها ، فيقع المحذور بعشق الجني للإنسي أو الإنسية ، كما يقع بين الإنس والإنس تمامًا . وقد تحدث حالة العشق والهوى هذه عندما تكون إحدى النساء مغرمة بالوقوف أمام المرآة وقتًا طويلاً ، أو شبه عارية ، فيقع في هواها قرينها من الجن ، وربما كان هذا من رجل فتعشقه جنية : يقول ابن تيمية : «صرع الجن للإنس قد يكون عن شهوة وهوى وعشق ، كما يتفق للإنس مع الجن ، وقد يتناكح الإنس والجن ويولد بينهما ولد ، وهذا كثير معروف ، وقد ذكر العلماء ذلك وتكلموا عليه . وقد يكون - وهو كثير ، والأكثر - عن بغض ومجازاة ، مثل أن يؤذيهم بعض الإنس ، أو يظنون أنهم يتعمدون أذاهم إما ببول على بعضهم ، وإما بصب ماء حار ، وإما بقتل بعضهم ، وإن كان الإنس لا تعرف ذلك ، وفي الجن ظلم وجهل فيعاقبونه بأكثر مما يستحقه .

وقد يكون عن عبث منهم وشر ، مثل سفهاء الإنس» [1] . وهذا الكلام لشيخ الإسلام ابن تيمية يتضمن السببين السابقين ويضيف إليهما سببًا آخر ، ألا وهو :

(هـ) ظلم الجني للإنسي أو العبث به ؛ لمجرد إيقاعه في الشر وإيذائه .. وهذا يقع من الجن مثل ما يقع من سفهاء الإنس ، الذين يؤذون بعضهم بعضًا دون أسباب .

إذًا قد يتعدى الجني على الإنسي - بدون أيّ سبب - فيصرعه ويؤذيه ، ومما يجعل هذا الأمر سهلاً - في أغلب الحالات - هو انغماس ذلك الإنسان في الشهوات أو إصابته بحالة شديدة من الغضب أو الخوف أو الحزن ، أو العويل

---

(١) مجموع الفتاوى : ١٩/ ٣٩ ، وآكام المرجان : ١٠٦ ، وغرائب وعجائب الجن : ١٥٧ .

والصراخ وخاصة عند المقابر كما يحدث عند المقابر من كثير من النساء [1] .

هذا فضلاً عن العداوة الأصلية التي يحملها الشيطان للإنسان ، منذ أن خلق الله آدم عليه السلام «إن الشيطان يمثل الشر في الأرض ، ويعمل دائبًا على تدمير حياة الإنسان بزحزحته عن هداية الله ، وإبعاده عن منهج الحق والرشاد ، لهذا حذرنا الله من كيده وأخبرنا بعداوته ، ودعا إلى مقاومته بكل وسيلة حتى يضعف سلطانه ، وتخف شروره وآثامه فقال : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [2] .

وقص علينا عداوته لأبينا آدم - عليه السلام - ما فيه العظة البالغة ... ويعلمنا أن الشيطان جاد في إلقاء خواطر السوء ومهتم بتقوية دواعي الشر والباطل في النفس الإنسانية» [3] .

إلا أن الإيمان يفيض على النفس إشراقًا ، ويملأ القلب نورًا فيمحو كل ما يوسوس به الشيطان ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [4] . وإذا ألم بالقلب الموصول بالله شيء من مس الشيطان فإنه سرعان ما يستيقظ ذاكرًا الله عز وجل فيستقيم على الطريق ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [5] يقول ابن كثير : إن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله ، ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى ، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن ؛ لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل ؛ لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه . وهذا

---

(١) راجع كيفية إخراج الجان من جسم الإنسان : ٥٩ ، والجن والأحوال الشيطانية : ١٥ : ١٧ ، والجن والشياطين مع الناس : ١٥٥ وما بعدها .

(٢) الآية : ٦ / فاطر .

(٣) العقائد الإسلامية : ص ١٤٥ -١٤٨ .

(٤) الآيتان : ٩٩ ، ١٠٠ / النحل .

(٥) الآية : ٢٠١ / الأعراف .

تعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة : قوله في الأعراف ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر . ثم قال ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١) وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ (٢) وقال تعالى في سورة حم السجدة (٣) : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٤) .

(و) وأخيرًا فإن هنالك أسبابًا أخرى متفرقة ، يمكن أن نضعها في الاعتبار - ولو بصورة مجملة - ما دمنا ننشد الحقيقة في قضية التلبس إثباتًا أو نفيًا .. ومن هذه الأسباب التي قصدت الإشارة إليها هنا : أن يفرط المرء في الانطواء أو الخلوة أو الوحدة الطويلة ، فنراه ينعزل عن المحيطين به ، ولا يملأ فراغه بالنافع المفيد من العلم أو الرياضة أو نحوهما مما يعود عليه بالفائدة صحيًا وذهنيًا واجتماعيًا .. ومن الأسباب كذلك : سيطرة أي مظهر من حالات الضعف الإنساني على شخص ما كاليأس والحزن والغضب (٥) ، فيكون بوسع الجن أو الشيطان أن يهيمن عليه

---

(١) الآيتان : ١٩٩ ، ٢٠٠ / الأعراف .

(٢) الآيات : ٩٦ - ٩٨ / المؤمنون .

(٣) يقصد (سورة فصلت) وهو ما تدل عليه الآيات التي أوردها في غير موضع من تفسيره (١/ ١٥ ، ٢/ ١٧٨) .

(٤) الآيات : ٣٤ - ٣٦ / فصلت ، وراجع تفسير ابن كثير الموضعين المذكورين في الهامش السابق .

(٥) يمكنك أن تقرأ شيئًا عن آثار الانفعالات والعواطف على الجسد والعقل والسلوك عامة في كتاب : الدراسات النفسية عند المسلمين : لعبد الكريم عثمان ، ص ٢٥٦ وما بعدها . الطبعة الثانية ١٩٨١ م ، وراجع أيضًا : الجن والشياطين مع الناس : ٥٩ وما بعدها . وعالم الجن والشياطين : ٦٧ وما بعدها .

حينئذ ، وتسهل مهمته أكثر فأكثر كلما آثر هذا الإنسان - البائس الغضوب - الانطواء في الظلمة وأماكن تواجد الجن كالخلاء والمقابر والبيوت المهجورة ونحو ذلك من مأوى الشياطين ومساكن الجن .

وفي بعض الأحيان - كما يذكر أحد الباحثين [١] - يطلب الساحر من الجني أن يصرع له إنسانًا ، أو تكون طبيعة الجن سيئة ، ويحب إيذاء الناس . أما الجن الصالح - ففي نظره - لا يتعرض للإنسان ولا يتلبس به .

وعمومًا فقد رأيت من يجعل السحر واحدًا من أسباب الصرع والتلبس الشيطاني ، صحيح أن السحر أنواع كثيرة ، منها ما يعتمد على الإيحاء والأوهام ، ومنها سحر التخييل والأخذ بالعيون (الشعوذة) ، ومنها سحر الأعمال العجيبة والتراكيب الهندسية . ومنها سحر الاستعانة بالجن والشياطين .. وأنواع أخر ذكرها الفخر الرازي وابن كثير وغيرهما عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [٢] ومما قاله القرطبي في هذا المعنى : السحر ثابت وله حقيقة ، وهو «من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم ودقة أفهامهم» .

وقال أيضًا : «قال علماؤنا : لا ينكر أن يظهر على يد الساحر خرق العادات مما ليس في مقدور البشر من مرض وتفريق وزوال عقل وتعويج عضو إلى غير ذلك مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات العادات» .

وقال أيضًا : «ولا يبعد في السحر أن يستدق جسم الساحر حتى يتولج في الكوات والخوخات والانتصاب على رأس قصبة والجري على خيط مستدق

---

(١) هو الدكتور : إبراهيم أدهم أستاذ الدراسات العليا بكلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية ، في حديث لملحق الإمام (بجريدة الأنباء الكويتية - العدد ٦٥٥٢ . الجمعة ١٩٩٤/٨/٥ .

(٢) صدر الآية : ١٠٢ / البقرة . وراجع : تسليط الصولجان على شياطين الإنس والجان : لأمين محمد جمال الدين : ٨٢/١ - ٨٦ مكتبة التوفيقية .

والطيران في الهواء والمشي على الماء وغير ذلك» [(١)] .

وقد عرض ابن قدامة لتعريف السحر ، وهل هو حقيقة أم تخييل ، ومظاهره ومستوياته «فمنه ما يقتل ، وما يمرض ، وما يأخذ الرجل عن امرأته فيمنعه وَطأَها ، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه ، وما يبغض أحدهما إلى الآخر ، أو يحبب بين الاثنين» .

وأورد بعض الآيات والآثار والمشاهدات الواردة في السحر ، وحد الساحر ، وهل يستتاب فإن تاب وإلا قتل ؟ أم لا يستتاب ؟ وأشار إلى طرف من السحر المختلف في حكم صاحبه ، ثم قال : «فأما الذي يعزم على المصروع ، ويزعم أنه يجمع الجن ، ويأمرها فتطيعه فهذا لا يدخل في هذا الحكم ظاهرًا . وذكره القاضي وأبو الخطاب في جملة السحرة» .

وأما من يحل السحر ؛ فإن كان بشيء من القرآن ، أو شيء من الذكر والأقسام والكلام الذي لا بأس به ، فلا بأس به . وإن كان بشيء من السحر فقد توقف أحمد عنه . قال الأثرم : سمعت أبا عبد الله سئل عن رجل يزعم أنه يحل السحر ، فقال : قد رخص فيه بعض الناس ...

وروي عن سعيد بن المسيب في الرجل يؤخذ عن امرأته ، فيلتمس من يداويه ، فقال : إنما نهى الله عما يضر ، ولم ينه عما ينفع . وقال أيضًا : إن استطعت أن تنفع أخاك فافعل . فهذا من قولهم يدل على أن المعزم ونحوه لم يدخلوا في حكم السحرة ؛ لأنهم لا يسمون به ، وهو مما ينفع ولا يضر [(٢)] .

***

(١) تفسير القرطبي : ٤٦/٢ ، ٤٧ ، ٥٠ ن وراجع أيضًا : المغني : ٢٩٩/١٢ .

(٢) المغني : ١٢/٣٠٣-٣٠٥ ، وراجع أيضا : تفسير القرطبي : ٢/٤٥-٤٧ ، وتسليط الصولجان على شياطين الإنس والجان : ٨٢/١ وما بعدها . والعلاج الرباني للسحر والمس الشيطاني : ٢٣-٦٤ وما بعدها .

الفرع الثاني : أدلة إثبات الصرع

يمكن أن نقسم أدلة ثبوت الصرع إلى أدلة نقلية (من القرآن والسنة) وأخرى عقلية ، فضلاً عن طائفة من أقوال أئمة أهل العلم من القدامى والمحدثين ، ونبين ذلك كله فيما يلي :

أولاً : الأدلة القرآنية :

ولعل أوضح آيات القرآن الكريم دلالة على إثبات الصرع هي قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾(١).

وقد قدمت في الفصل السابق ـ دراسة مفصلة عن مفهوم الربا وأنواعه وأضراره .. وكذا دلالة التعبير بـ ﴿يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ ثم اتجاهات العلماء في قيام المرابين وتخبطهم كحال المجنون أو المصروع ، ورأينا مذهب الجمهور في أن ذلك يكون يوم القيامة علامة لهم . أما ابن عطية ـ ويوافقه بعض العلماء المعاصرين ـ فهؤلاء يرون ذلك في الدنيا أيضًا ، وهو ما رجحته في ضوء موقف الإسلام من الربا ، واعتمادًا على مقاصد الشريعة ، فضلاً عن وجود العقوبات القدرية ، وإعلان الحرب من الله ورسوله على المرابين .

وسوف أقتطف هنا بعض هذه الأقوال ـ الممثلة للاتجاهين المذكورين ـ مضافًا إليها طائفة من أقوال غيرهم ممن لم يرد ذكرهم أو إحالة عليهم من قبل .

ـ يقول الماوردي في (النكت والعيون) : واختلفوا في مس الجنون هل هو بفعل الشيطان ؟ فقال بعضهم : هذا من فعل الله بما يحدثه من غلبة السوداء فيصرعه ، وينسب إلى الشيطان مجازًا ، تشبيهًا بما يفعله من إغوائه الذي يصرعه .

وقال آخرون : بل هو من فعل الشيطان بتمكين الله له من ذلك في

---

(١) من الآية : ٢٧٥ / البقرة .

بعض الناس دون بعض ؛ لأنه ظاهر القرآن ، وليس في العقل ما يمنعه [١] .

ويقول ابن كثير : «أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له ، وذلك أنه يقوم قيامًا منكرًا» [٢] .

وقال ابن عباس : (آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونًا يخنق) ... وروي عن عوف بن مالك وسعيد بن جبير والسدي والربيع بن أنس (وآخرين) نحو ذلك [٣] .

وقال الإمام القرطبي : «في هذه الآية دليل على فساد من أنكر الصرع من جهة الجن ، وزعم أنه من فعل الطبائع ، وأن الشيطان لا يسلك في الإنسان ولا يكون منه مس» وروى حديث أبي اليسر - رضي الله عنه - في دعاء الرسول ﷺ ، أنه كان يدعو ربه فيقول : اللهم إني أعوذ بك ... أن يتخبطني الشيطان عند الموت ... ثم قال : «والمس : الجنون ، يقال مس الرجل وألس فهو ممسوس ومألوس إذا كان مجنونًا ، وذلك علامة الربا في الآخرة» [٤] .

وقال الطبري : لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كقيام المصروع الذي يتخبطه الشيطان من المس ، يعني بذلك يخبله الشيطان في الدنيا - أو يخنقه - فيصرعه من الجنون [٥] .

وقال البغوي - في تفسير الآية المذكورة - ﴿يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أي : الجنون ، يقال : مس الرجل فهو ممسوس إذا كان مجنونًا [٦] .

وأضاف الألوسي - في روح المعاني - «وأصله اللمس باليد ، وسمي به

---

(١) تفسير الماوردي : ٢٨٨/١ .

(٢) تفسير ابن كثير : (٣٢٦/١) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) مختصر تفسير القرطبي للشيخ محمد كريم راجع ٢٦٥/١ دار الكتاب العربي ١٩٨٧ م . وراجع : تفسير القرطبي : ٣٥٥/٣ دار الكتاب العربي ١٩٦٧ م .

(٥) راجع : مختصر تفسير الطبري : ٨٨/١ دار التراث العربي .

(٦) نقلاً عن كيفية إخراج الجان ... ص ٥١ .

لأن الشيطان قد يمس الرجل وأخلاطه مستعدة للفساد فتفسد ويحدث الجنون» وذكر أنه قد يحصل مس ولا يحصل جنون ، والعكس ، ثم قال : «والجنون الحاصل بالمس قد يقع أحيانًا ، وله عند أهله الحاذقين أمارات يعرفونه بها» [1] .

وقال القاسمي في محاسن التأويل : «والمعنى أنهم يقومون يوم القيامة مخبولين كالمصروعين» وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم : «الذين يتعاملون بالربا لا يكونون في سعيهم وتصرفهم وسائر أحوالهم إلا في اضطرابات وخلل كالذي أفسد الشيطان عقله فصار يتعسر من الجنون الذي أصابه» [2] وأوضح من هذا ما ذكره صاحب تفسير المنار (رشيد رضا) حيث قال :

أما قيام آكلي الربا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، فقد قال ابن عطية في تفسيره : المراد تشبيه المرابي في الدنيا بالمتخبط المصروع ، كما يقال لمن يصرع بتحركات مختلفة : قد جُنَّ .

أقول - والكلام للشيخ رشيد رضا - وهذا هو المتبادر ، ولكن ذهب الجمهور إلى خلافه وقالوا : إن المراد بالقيام القيام من القبر عند البعث ، وأن الله تعالى جعل من علامة المرابين يوم القيامة أنهم يبعثون كالمصروعين .

إلى أن قال : إن المرء يبعث على ما مات عليه ؛ لأنه يموت على ما عاش عليه ، وبهذا يمكن الجمع بين ما قاله ابن عطية وما قاله الجمهور ..

ثم إن التشبيه مبني على أن المصروع الذي يعبر عنه بالممسوس يتخبطه الشيطان ؛ أي أنه يصرع بمس الشيطان له ، وهو ما كان معروفًا عند العرب وجاريًا في كلامهم مجرى المثل [3] .

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : ٣/٤٩ طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٩٨٥ م .　　(٢) نقلاً عن : كيفية إخراج الجن من جسم الإنسان ص ٤٣ .

(٣) راجع : مختصر تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا : ١/٢٧١ - ٢٧٢ طبعة المكتب الإسلامي ١٩٨٤ م . أو تفسير المنار : ٣/٨٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م .

وكلام المفسرين في هذا المعنى كثير .. وبوسعك أن تقرأ - إن شئت - شيئًا من ذلك حول آية البقرة [(١)] ، وسائر الآيات القرآنية التي تحدثت عن وسوسة الشيطان للإنسان ، ووصف الأخير - ولو كان النبي ﷺ - بالجنون .

ثانيًا : من السنة المطهرة :

فقد صرحت طائفة من الأحاديث النبوية الصحيحة أن الشيطان يتعرض للإنسان فيصرعه ويدخل في جسده .. وربما شل حركته أو أدى حركات انفعالية عنيفة ، وقذف بالزبد من فيه ، وتلفظ بكلمات غريبة عنه وعن أهله وبلده ، وربما هذى بكلمات غير مفهومة أو صمت تمامًا عن الكلام .. إلى غير ذلك من أحوال المصروع ، ونذكر من هذه الأحاديث :

١- ما رواه البخاري وغيره من حديث عطاء بن أبي رباح : قال ابن عباس : «ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟» قلت : بلى . قال : هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت : إني أصرع ، وإني أتكشف ، فادع الله لي . قال : «إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك» فقالت : أصبر . ثم قالت : وإني أتكشف فادع الله ألا أتكشف . فدعا لها [(٢)] .

وفي بعض روايات هذا الحديث أنها قالت : إني أخاف الخبيث أن يجردني ، فدعا لها ، فكانت إذا خشيت أن يأتيها تأتي أستار الكعبة فتتعلق بها [(٣)] .

يقول الحافظ ابن حجر في شرحه على هذا الحديث : «قد يؤخذ من الطرق التي أوردتها أن الذي كان بأم زفر كان من صرع الجن لا من صرع الخلط» [(٤)] .

---

(١) أعني غير ما أوردته منها هنا .

(٢) راجع مثلاً : نيل الأوطار للشوكاني : ٨٩/٩ طبعة دار الجيل ١٩٧٣ م وتعليق الشوكاني عليه في ص ٩٢ ، ٩٣ ، وكذا ما قرره ابن القيم في زاد المعاد (٨٤/٣ - ٨٦) حول هذا الحديث .

(٣) كيفية إخراج الجان من جسم الإنسان ص ٤٤ .

(٤) نقلاً عن المصدر السابق : الموضع نفسه .

ولكن العلامة ابن القيم يرجح أن يكون صرعها من النوع الثاني (صرع الاختلاط : كما أطلق عليه) فيقول : «هذه المرأة التي جاء الحديث أنها كانت تصرع وتنكشف يجوز أن يكون صرعها من هذا النوع ، فوعدها النبي ﷺ الجنة بصبرها على هذا المرض ودعا لها أن لا تنكشف ، وخَيَّرَهَا بين الصبر والجنة وبين الدعاء لها بالشفاء من غير ضمان ، فاختارت الصبر والجنة» إلى أن قال : «والظاهر أن صرع هذه المرأة كان من هذا النوع ، ويجوز أن يكون من جهة الأرواح ، ويكون رسول الله ﷺ قد خيرها بين الصبر على ذلك مع الجنة وبين الدعاء لها بالشفاء فاختارت الصبر والستر ، والله أعلم» [١] .

٢- وروي من حديث جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع حتى إذا كنا بحرة واقم عرضت امرأة بدوية بابن لها فجاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، هذا ابني قد غلبني عليه الشيطان ، فقال : «أدْنِيهِ مني» فَأَدْنَتْهُ منه قال : «افتحي فمه» ففتحته فبصق فيه رسول الله ﷺ وقال : «اخسأ عدو الله ، أنا رسول الله» قالها ثلاث مرات ، ثم قال : «شأنك بابنك ليس عليه ، فلن يعود إليه شيء مما كان يصيبه» [٢] .

٣- وعن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال : لما استعملني رسول الله ﷺ على الطائف جعل يعرض لي شيء في صلاتي حتى ما أدري ما أصلي ، فلما رأيت ذلك رحلت إلى رسول الله ﷺ فقال : «ابن أبي العاص ؟» قلت : نعم يا رسول الله قال : «ما جاء بك ؟ قلت يا رسول الله ، عرض لي شيء في صلاتي حتى ما أدري ما أصلي ، قال : «ذاك الشيطان ، ادن» فدنوت منه فجلس على صدور قدمي قال : فضرب صدري بيده وتفل في فمي وقال : «اخرج عدو الله»

---

(١) زاد المعاد : ٣/٨٤ ، ٨٦ .

(٢) انظر مجمع الزوائد للهيثمي ٩/٦ وما بعدها . ولقط المرجان في أحكام الجان : للسيوطي ص ٩٧ وما بعدها فثمة أحاديث أخرى قريبة من هذا ، من طريق يعلي بن مرة ، ومطر بن عبد الرحمن الأعنق عن أم أبان وغيرها .

فعل ذلك ثلاث مرات ، ثم قال : «الحق بعملك» يقول عثمان : فلعمري ما أحسب خالطني بعد [١] .

والشاهد من هذه الأحاديث وأمثالها أن النبي ﷺ كان يأمر الجني الصارع بالخروج بقوله : اخرج . وهذا لا يكون إلا من دخول حقيقي في بدن المصروع ، وإلا فما كان النبي ﷺ ليأمر بالخروج من هو ليس بالداخل [٢] .

٤- وعن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال : كنت عند النبي ﷺ ، فجاء أعرابي فقال : يا نبي الله إن لي أخًا به وجع ، قال : وما وجعه ؟ قال : به لمم . قال : فائتني به .. قال : فوضعه بين يديه فعوذه النبي ﷺ بفاتحة الكتاب وأربع آيات من أول سورة البقرة [١-٤] وآيتين من وسط البقرة ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [١٦٣ ، ١٦٤] وآية الكرسي [٢٥٥] وثلاث آيات من آخر البقرة [٢٨٤-٢٨٦] وآية من سورة آل عمران ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [١٨] وآية من سورة الأعراف ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ﴾ [٥٤] وآية من سورة المؤمنون ﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [١١٦] وآية من سورة الجن ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ [٣] وعشر آيات من أول الصافات [١-١٠] وثلاث من آخر الحشر [٢١-٢٤] و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين [٣] .

قال النووي : اللمم طرف من الجنون يلم بالإنسان ويعتريه ، والحديث السابق هو الأساس الذي وضعه النبي ﷺ للعلاج القرآني للمس .

٥- وحديث ابن مسعود (رضي الله عنه) قال : بينا أنا والنبي ﷺ في بعض طرقات المدينة إذا برجل قد صرع ، فدنوت منه وقرأت في أذنه فأفاق .

---

(١) المصدر السابق . وأيضًا آكام المرجان في أحكام الجان : للشبلي ص ١١٣ ، ١٦٥ ، والعلاج الرباني للسحر والمس الشيطاني : ٥ - ١١ ، ٣٨ - ٤٧ .

(٢) تسليط الصولجان على شياطين الإنس والجان : ١/٥١ .

(٣) رواه الحاكم والبيهقي وغيرهما ، (مجمع الزوائد : ١١٥/٥) ، وراجع : العلاج الرباني : ٣٩ ، وحوار مع الشياطين .. ص ٢٠ .

فقال النبي ﷺ : «بما قرأت في أذنه ؟ فقلت قرأت : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [(١)]» ، قال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده لو أن رجلاً موقنًا قرأها على جبل لزال» أو «لزلزل» [(٢)] .

٦- وثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «إن الشيطان عَرَضَ لي فشد علي ليقطع الصلاة عليَّ فأمكنني الله تعالى منه ، ولقد هممت أن أوثقه إلى ساريةٍ حتى تصبحوا فتنظروا إليه فذكرت قول أخي سليمان عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ فرده الله خاسئًا» أو كما قال [(٣)] .

٧- وقد أخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان وغيرهما عن صفية رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ..» وروى الإمام أحمد - في المسند : بإسناد صحيح - أن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال : يا رسول الله حال الشيطان بيني وبين صلاتي وبين قراءتي قال : «ذاك شيطان يقال له خنزب فإذا أنت حسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثًا» قال : ففعلت ذاك فأذهبه الله عز وجل عني .

كما ثبت في الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن كل إنسان معه قرين من الملائكة وقرين من الشياطين ، حتى رسول الله ﷺ ، إلا أن الله أعانه على شيطانه فأسلم ، فلا يأمره إلا بخير [(٤)] .

---

(١) الآيتان : ١١٥ ، ١١٦ / المؤمنون .

(٢) انظر تفسير ابن كثير : (٢٥٩/٣) ، ولقط المرجان في أحكام الجان للسيوطي ص ١١٠ ، وكيفية إخراج الجان .. ص ٤٦ ومصادره .

(٣) لقد ورد بمعناه ، ومن طرق عدة - أحاديث أخرى (راجع مثلاً تفسير ابن كثير : ٣٧/٤ عند تفسير الآية : ٣٥ / من سورة ص .

(٤) انظر : صحيح مسلم بشرح النووي آخر باب تحريش الشيطان .. من كتاب صفة القيامة والجنة والنار . وراجع أيضًا : كيفية إخراج الجان .. ص ٥١ . ولقط المرجان : ٩٧ ، ١٠٤ .

يقول القاضي عبد الجبار : (ولشهرة هذه الأخبار وظهورها عند العلماء قال أبو عثمان عمرو بن عبيد : «إن المنكر لدخول الجن في أبدان الإنس دهري أو يجيء منه دهري».. وإنما قال ذلك لأنها قد سارت في الشهرة والظهور كشهرة الأخبار في الصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة ، ومن أنكر هذه الأخبار التي ذكرناها كان رادًّا ، والرادُّ على رسول الله ﷺ ما لا سبيل إلى علمه إلا من جهته كافر ، ومن لا يعلم أن المعجزات لا يقدر عليها إلا الله عز وجل وحده لم يصح له أن يعلم أن الأجسام لا يفعلها إلا الله عز وجل .. ومن لم يعلم ذلك لم يمكنه إثبات قادر لنفسه ، ولا عالم لنفسه ولا حي لنفسه ، ومن لم يمكنه إثبات هذا لم يمكنه إثبات فعل الأجسام ، وإذا لم يمكنه ذلك - وهي موجودة - لم يمكنه أن يثبتها محدثة . وإذا لم يمكنه أن يثبتها محدثة - وهي مع ذلك موجودة فلابد من أن تكون قديمة .. ومن كان هذا حاله كان دهريًّا أو جاء منه دهري (على ما قال) وفساد قوله على ما ذكرناه من هذا الترتيب ، فهذا معنى قوله : دهري أو يجيء منه دهري [1] .

ثالثًا : من الأدلة العقلية :

كما رأينا في نهاية الفقرة السابقة ، حيث الرد على الدهريين وأشباههم ممن يثبتون الأحداث إلى الزمن أو الدهر ، متجاهلين قانون السببية فضلاً عن قدرة من خلق الجن والإنس . ثم إن المشاهدة والتجربة تجعل المرء يغلب على ظنه -وقد يصل إلى درجة اليقين - أمر دخول الجني جسم الإنسان ، حيث يرى منه أشياء غريبة ، كأن يتحدث بلسان آخر لم يعرف عنه [2] ، أو يحمل شيئًا ثقيلاً يعجز

---

(١) آكام المرجان : ١٠٩ ، وغرائب وعجائب الجن : ١٦٠ .

(٢) فمثلاً إن كان المصروع رجلاً يتحدث بصوت امرأة والعكس ، وربما تكلم بلغة غريبة عن أهله وبلده أو في موضوعات تفوق ثقافته ومؤهلاته ، وقد يهذي بكلام غير مفهوم ، أو تصطك أسنانه ويصمت عن أي كلام ، وسوف نرى شيئًا من ذلك بعد قليل على لسان الإمام أحمد وابن حزم وابن تيمية وابن القيم .. وغيرهم .

عنه في الظروف المعتادة أن تتشنج أعضاؤه .. «إن كل من شاهد المصروع وأفعاله وطاقاته تحقق له أن الناطق على لسان هذا الإنسان والمحرك لهذه الأجسام جنس آخر غير هذا الإنسان» [١] .

ونضيف إلى ذلك ما قاله القاضي عبد الجبار الهمذاني : «إذا صح ما دللنا عليه من رقة أجسامهم وأنها كالهواء لم يمتنع دخولهم في أبداننا ، كما يدخل الريح والنَّفَس المتردد - الذي هو الروح - في أبداننا من التخرق والتخلخل ، ولا يؤدي ذلك إلى اجتماع الجواهر في حيز واحد ؛ لأنها لا تجتمع إلا على طريق المجاورة لا على سبيل الحلول ، وإنما تدخل في أجسامنا كما يدخل الجسم الرقيق في الظروف .

- فإن قيل : إن دخول الجن في أجسامنا إلى هذه المواضع يوجب تقطيعها أو تقطيع الشياطين ؛ لأن المواضع الضيقة لا يدخلها الجسم إلا ويتقطع الجسم الداخل فيها .

- قيل له : إنما يكون ما ذكرته إذا كانت الأجسام التي تدخل في الأجسام كثيفة كالحديد والخشب ، فأما إذا كانت كالهواء فالأمر بخلاف ما ذكرته . وكذلك القول في الشياطين ، إنهم لا يتقطعون بدخولهم في الأجسام ؛ لأنهم إما أن يدخلوا بكليتهم فبعضهم متصل ببعض فلا يتقطعون ؛ وإما أن يدخلوا بعض أجسامهم إلا أن بعضهم متصل ببعض فلا يتقطع أيضًا ، وهذا مثل أن تدخل الحية في جحرها كلها ، أو تدخل بعضها وبعضها يبقى خارج الجحر ؛ لأن ذلك لا يوجب تقطعها» [٢] .

وقال أيضًا - بعد ما قدم حديث (الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم) - : هذا لا يصح ، إلا أن تكون أجسامهم رقيقة على مقتضاه . ونظائر ذلك من الأخبار المروية في هذا الباب ، من أنهم يدخلون في أبدان الإنس ،

---

(١) الجن والشياطين مع الناس : ص ١٢٦ .

(٢) آكام المرجان ص ١٠٨ ، أو غرائب وعجائب الجن ص ١٥٩ .

وهذا لا يجوز على الأجسام الكثيفة (١) .

بل لقد قال أبو القاسم الأنصاري : «ولو كانوا كثافا يصح ذلك أيضًا منهم . كما يصح دخول الطعام والشراب في الفراغ من جسمه فيجب تصحيح ذلك وتأويل المس منه عليه (٢) .

وقال قائلون : إن معنى سلوكهم في الإنس إنما هو بإلقاء الظل عليهم ، وذلك هو المس ومنه الصرع والفزع . وذلك أيضًا مما يدفعه العقل ، غير أنه ورد السمع بسلوكهم في الإنس ووضع الشيطان رأسه على القلب (٣) .

ونضيف إليه أن الشيطان بمقدوره أن يحول نفسه إلى طاقة حرارية ؛ لأنه يتشكل بعدَّة أشكال مختلفة كنسمة هواء أو نفخة ريح .. وبذلك يدخل الإنسان ويجري فيه مجرى الدم من العروق .. فيثير غضبه ويشجعه على الشر وينفره من الخير .. ويصيبه بالكآبة ، (٤) ويعلوه الغم ، وتحبب إليه العزلة .

وبطبيعة الحال إذا كان الجن أجسامًا لطيفة لم يمتنع عقلاً ولا نقلاً سلوكهم في أبدان بني آدم ؛ فإن اللطيف يسلك في الكثيف كالهواء مثلاً فإنه يدخل في أبداننا ، وكالنار تسلك في الجمر ، وكالكهرباء تسلك في الأسلاك ، بل وكالماء في الأتربة والرمال والثياب ، مع أنه ليس في اللطافة كالهواء والكهرباء (٥) .

***

(١) المصدران السابقان الأول ص ١٠٨ - ١٠٩ ، والثاني : ص ١٦٠ .
(٢) ، (٣) آخر الباب ٥١ من آكام المرجان .
(٤) حوار مع الشياطين .. للشيخ محمد الصايم : ٢٧ .
(٥) المصدر السابق : ص ٢٣ .

رابعًا : أقوال أئمة أهل العلم :

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : إن وجود الجن ثابت بالقرآن والسنة واتفاق سلف الأمة ، وكذلك دخول الجني في بدن الإنسان ثابت باتفاق أئمة أهل السنة والجماعة ... وهذا أمر مشهور فإنه يصرع الرجل فيتكلم بلسان لا يعرف معناه ، ويضرب على بدنه ضربًا عظيمًا لو ضرب به جمل لأثر به أثرًا عظيمًا ، والمصروع مع هذا لا يحس بالضرب ولا بالكلام الذي يقوله .

وقد يجر المصروع وغير المصروع ، ويجر البساط الذي يجلس عليه ، ويحول الآلات ... ويجري غير ذلك من الأمور ، من شاهدها أفادته علمًا ضروريًا بأن الناطق على لسان الإنس ، المحرك لهذه الأجسام جنس آخر غير الإنسان .

وليس في أئمة المسلمين من ينكر دخول الجني في بدن المصروع ، ومن أنكر ذلك وادعى أن الشرع يكذب ذلك فقد كذب على الشرع ، وليس في الأدلة الشرعية ما ينفي ذلك [١] .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : (قلت لأبي : إن قومًا يقولون : إن الجن لا تدخل في بدن الإنس) قال : يا بني يكذبون ، هو ذا يتكلم على لسانه [٢].

يعني لسان المصروع ، فقد جعل المتكلم هو الجني ، وكذلك الحركة ، أي حركة المصروع .. [٣] .

وذكر أبو الحسن الأشعري في مقالات أهل السنة والجماعة أنهم يقولون : إن الجن تدخل في بدن المصروع ، كما قال الله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [٤] .

وقال أبو محمد ابن حزم الظاهري : (وصح أن الشيطان يمس الإنسان الذي

---

(١) مجموع الفتاوى : ٢٤ / ٢٧٦ ، ٢٧٧ . (٢) آكام المرجان ص ١٠٧ .
(٣) السابق ص : ١١٠ وغرائب وعجائب الجن .. ص ١٥٨ ، ١٦٢ .
(٤) المصدر الأخير : ص ١٥٨ ولقط المرجان في أحكام الجان ص ١٠٧ .

يسلطه الله عليه مَسًّا كما جاء في القرآن ، يثير به من طبائعه السوداء الأبخرة المتصاعدة إلى الدماغ كما يخبر به عن نفسه كل مصروع ، بلا خلاف منهم ، فيحدث الله عز وجل له الصرع والتخبط حينئذ كما نشاهده ، وهذا هو نص القرآن ، وما توجبه المشاهدة) [1] .

وها هو شمس الدين السرخسي (ت ٤٩٠ هـ) - صاحب كتاب المبسوط في الفقه الحنفي - يعقب على حديث (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم) مقررًا أن فيه ردا على من أنكر دخول الجن في الآدمي بحجة أن اجتماع الروحين في شخص لا يتحقق ، أو بحجة أنهم أجسام لطيفة فلا يتصور أن يحملوا جسمًا كثيفًا من موضع إلى موضع .. ثم يقول : «نأخذ بما وردت به الآثار .. وهو مذهب أهل السنة والجماعة ... فنتبع الآثار ولا نشتغل بكيفية ذلك» [2] .

وقال ابن القيم : «شاهدت شيخنا - يقصد ابن تيمية - يرسل إلى المصروع من يخاطب الروح التي فيه ، ويقول : (قال لك الشيخ : اخرجي فإن هذا لا يحل لك) فيفيق المصروع وربما خاطبها وربما خاطبها بنفسه ، وربما كانت الروح ماردة فيخرجها بالضرب فيفيق المصروع ، ولا يحس بألم ، وقد شاهدنا نحن وغيرنا منه ذلك مرارا ، وكان كثيرًا ما يقرأ في أذن المصروع : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [3] .

هذا وللشيخ ابن باز رسالة مطولة [4] في الرد على منكري الصرع من الأطباء والعلماء في هذا العصر .. وذكر بعض حوادث تلبس الجن ببعض المسلمات في الرياض وغيرها ، وكيف أن إحداهن تلبس بها جني هندي بوذي الديانة ،

---

(١) نقلاً عن كيفية إخراج الجان ص ٤٧ وراجع أيضًا : روح المعاني : ٣ / ٤٩ .

(٢) المبسوط ٣٦/١١ - ٣٧ الطبعة الثانية ١٩٧٨ دار المعرفة .

(٣) زاد المعاد ٨٤/٣ والآية ١١٥ المؤمنون .

(٤) هذه الرسالة في كتاب : كيفية إخراج الجان من جسم الإنسان ص ٤٨ - ٥٦ .

ولذلك كانت تشعر بأفكار مخالفة للشرع ، وتميل إلى الدين البوذي والاطلاع على الكتب المؤلفة فيه .. فلما دعاه الشيخ إلى الإسلام وهداه الله أعلن إسلامه صراحة ، وغادر المرأة .. فزالت عنها تلك الأفكار المنحرفة ، ورجعت إلى حالتها الأولى ، وكان كل ذلك بحضور جمع من المشايخ وأهل هذه المرأة .

ولكي يؤكد فضيلة الشيخ ابن باز ما يرجحه من دخول الجني بدن المصروع أورد طائفة من الأحاديث الصحيحة وشروحها ، وأقوال المفسرين في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ ثم أتبع ذلك بجمل من كلام أهل العلم كالإمام أحمد وأبي الحسن الأشعري وابن تيمية وابن القيم .. وقال الشيخ في بداية هذه الفقرات :

«وقد دل كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله ﷺ وإجماع الأمة على جواز دخول الجني بالإنسي وصرعه إياه ، فكيف لمن ينتسب إلى العلم أن يذكر ذلك بغير علم ولا هدى ، بل تقليدًا لبعض أهل البدع المخالفين لأهل السنة والجماعة ، فالله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأنا أذكر لك أيها القارىء ما تيسر من كلام أهل العلم في ذلك إن شاء الله» (١) .

ثم قال بعد أن أورد ما تيسر له من أقوالهم : «وبما ذكرنا من الأدلة الشرعية وإجماع أهل العلم من أهل السنة والجماعة على جواز دخول الجني بالإنسي يتبين للقراء بطلان قول من أنكر ذلك ...

(إلى أن قال) فاعلم ذلك أيها القارىء وتمسك بما ذكرناه من الحق ، ولا تغتر بجهلة الأطباء وغيرهم ، ولا بمن يتكلم في هذا الأمر بغير علم ولا بصيرة بل بالتقليد لجهلة الأطباء وبعض أهل البدع من المعتزلة وغيرهم» (٢) .

ومن تتمة الفائدة أن أشير إلى ما يمكن أن يكون شكلاً من أشكال التفرقة

---

(١) السابق : ٥١ .

(٢) نفسه ص ٥٤ ، ٥٥ وراجع أيضًا : عالم الجن والشياطين من الكتاب والسنة : ٦٦ .

الظاهرية - وإن شئت قل : اللغوية - بين التلبس الشيطاني والمس الشيطاني ، وهذا بالفعل ما حرص بعض المشتغلين بهذه العلوم على التأكيد عليه ، فقال : «التلبس الشيطاني هو دخول الشيطان أو الجني الصارع بدن الإنسان دخولاً حقيقيًا ماديًا ، بحيث يصرعه ويشل حركته ، ويتحكم في مواضع الإحساس ومراكز المخ .. فقد يضرب الإنسي المصروع ولا يشعر ، ويُنادى عليه فلا يسمع ، ويأتي يتكلم فلا يستطيع ، قد تحكم الجني الصارع فيه تحكمًا تامًا ـ قد يكون كليًا ، وربما كان جزئيًا ، بحسب نوع الصرع ونوع الجني الصارع .

وهذا النوع - وهو التلبس الشيطاني - يتطلب معالجة لطرده وإخراجه من جسم المصروع ، فهو لا يخرج من تلقاء نفسه أبدًا إلا أن يلتزم المصروع ببرنامج علاج مكثف ، ويكون صادق اليقين بربه والثقة فيه ، فيفارقه الجني الصارع حينئذ غير مأسوف عليه ...

أما المس الشيطاني ، والذي يعرفه الناس بـ (اللمسة الأرضية) فيكون بطعن الجن في بدن الممسوس من الخارج أو بضربه ضربات تسبب آثارًا حسية وإصابات مادية مرئية ، فقد أخرج الشيخان عن أم سلمة رضي الله عنها «أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية بها سفعة قال : استرقوا لها فإن بها النظرة» وأمثلة أخرى تدل على (المس الظاهري) دون التلبس الشيطاني» [1] .

ومع ذلك فقد استعملت الدراسات القديمة والحديثة - التي اطلعتُ عليها - الكلمتين بمعنًى واحد ، ولم تقف عند هذه التفرقة اللغوية في الأساس ، وهو ما اتبعناه هنا في هذه الدراسة ، إذ لا مشاحّةَ في الاصطلاح من جهة ؛ ولأننا نحتكم في هذه القضية برُمتها إلى مستويات المس وأعراضه أو مظاهره ، أيًا كان السبب فيها ، أي سواء أكانت في أصلها تلبس أم مس ، ومن جهة أخرى .. فإن هذه المستويات والأعراض هي موضوع حديثنا فيما يأتي .

---

(١) تسليط الصولجان على شياطين الإنس والجان : ١/٧١-٧٤ ، وكلمة سفعة من الفعل سفع ومعناها تغيير لون البشرة (راجع : المعجم الوسيط) .

الفرع الثالث : مستويات الصرع أو المس ، وأعراضه

أولا : القائلون بأن الجن يتلبس بدن الإنسان ، وأن الصرع أو الجنون الحاصل من المس مشاهد محسوس «يكاد يعد منكره مكابرًا منكرًا للمشاهدات» (١) هؤلاء يقسمون مستويات المس أو درجة سيطرة الجني على الإنس إلى مس كلي وجزئي ، أو مس دائم ، وما أطلقوا عليه المس الطائف .. ونشير إلى هذه المستويات فيما يلي :

١ - المس الكلي :

وهو أن يمس الجني جسد الإنسان مسًا كاملاً ، ويسيطر عليه سيطرة تامة ، بحيث لا يدري ماذا يفعل .. وهذا النوع من الصرع قريب الشبه بالصرع العضوي حتى أن الأمر ليختلط على كثير من المعالجين ، فلا يفرق بين الحالتين إلا ذو خبرة بالعلاج ، وبصيرة بخصائص وأعراض كل نوع منهما ؛ وذلك لأن التشنجات العصبية التي تحدث للمصروع تكون شديدة ، ويؤخذ المريض أغلب أوقاته ، ويتصرف كأنه ليس بإنسان ، ويفعل أشياء ليست من عاداته ، فوق أنه لا يحس بها ، وقد يصر على إنكار حدوثها منه (٢) .

٢ - المس الجزئي :

ويقصد به ذلك المس الذي يحدث في أحد أعضاء الجسد كاليد أو القدم فيحس الإنسان أنه في حالة أشبه ما تكون بالشلل الجزئي ، وقد يحدث المس في اللسان فيصعب عليه النطق أو يستحيل عليه الكلام وكأنه أخرس ، فإذا كان المس في العين فإنك تراها مفتوحة وشبه متحجرة ولا تكف عن الدمع ، كما لا يقوى صاحبها على الرؤية بها ، بل يظن أنه أصيب بالعمى ..

---

(١) روح المعاني للألوسي : ٣/٤٩ .

(٢) كيفية إخراج الجان : ص ٦٠ .

«والتفريق بين المس الجزئي والحالة المرضية يكون صعبًا ؛ لأن هناك فروقًا بسيطة بينهما لا يعرفها إلا من مارس العلاج بالقرآن مدة طويلة ، واكتسب بعض المهارات في معرفة المس الجزئي فيكون العضو المصاب بالمس قادرًا على الحركة ولكن بصعوبة بالغة جدًا ، وفي بعض الأحيان يكون غير قادر على الحركة ولكن ليس به ضمور ، أما في حالة الشلل العضوي يكون العضو غير قادر على الحركة أيضًا ولكن يحدث به ضمور فمثلاً إذا كان في اليد تجد أن اليد المصابة أصغر بقليل - أي ضامرة - من الأخرى السليمة» (١) .

٣ - *المس الدائم* :

وهذا النوع من المس يكون بدخول الجن جسم الإنسان بصفة دائمة ، وهو يشبه المس الكلي غير أن الإنسان الممسوس في هذا النوع لا يذهب عنه الصرع ، وإنما ينتقل من عضو إلى عضو ، فهو يشعر مثلاً بألم في رأسه ، ثم ينتقل هذا الألم إلى ذراعيه ، ثم إلى عضو آخر بصفة دائمة .. وهكذا . أما في المس الكلي - النوع الأول - فيحدث أن يصرع الإنسان أو يمس في جسده كله فترة ، ثم يذهب عنه هذا الصرع أو المس ويعود معافى ، وهكذا أيضًا كلما مسه جن أو لمزه شيطان (٢) .

٤ - *المس الطائف* :

وهو نوع من المس الشيطاني يأتي للإنسان في منامه ، وهو ما يسمى بالكوابيس .. ويحدث هذا النوع غالبًا عند ترك التمسك بالسنة النبوية المطهرة وتوجيهاتها ، وخاصة آداب النوم مثل ترك الوضوء قبل النوم ، وعدم النوم على الجانب الأيمن ، وكذلك عدم قراءة آية الكرسي أو المعوذتين أو الأدعية المأثورة قبل النوم .. يقول ابن كثير - عند تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ

---

(١) المصدر السابق : الموضع نفسه .

(٢) وراجع أيضًا : المصدر السابق . والعلاج الرباني ... ص ٤٩ .

يُبْصِرُونَ﴾ [١] - يقول : «يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر أنهم إذا مسهم أي أصابهم طيف ، وقرأ الآخرون طائف وقد جاء فيه حديث ، وهما قراءتان مشهورتان ، قيل بمعنى واحد . وقيل بينهما فرق ، ومنهم من فسر ذلك بالغضب ، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه ، ومنهم من فسره بالهم بالذنب ، ومنهم من فسره بإصابة الذنب .

وقوله تعالى : ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾ أي وإخوان الشياطين من الإنس كقوله : ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم يمدونهم في الغي أي تساعدهم الشياطين على المعاصي وتسهلها وتحسنها لهم .... ولا تسأم من إمدادهم في الشر ؛ لأن ذلك طبيعة لهم وسجية» [٢] .

ثانيا : أعراض المس

إن الشخص الذي به أي نوع من المس أو الصرع تظهر عليه أمارات أو ظواهر معينة بعضها لا يكاد يفارقه ، وبعضها الآخر يرتبط وجودًا وعدمًا بدوافع أو بمثيرات ذاتية أو خارجية ، قد تتصل بالزمان أو بالمكان أو بأشخاص أو بحيوان أو بغير هذا .. ولعل من المفيد أن أشير هنا إلى طائفة من هذه المظاهر أو الأعراض التي تصدر عن الممسوس ، كما أوردها بعض المشتغلين بهذا الموضوع [٣] .

١- التشنجات العصبية الشديدة للشخص المصروع ، وقد يختلط الأمر بين هذه الحالة - وما يشابهها - وبين الصرع العضوي .

٢- رؤية الكوابيس والأحلام المزعجة في المنام باستمرار ، سواء غَيَّرَ الإنسان مكان أو زمان نومه أو لم يغيرهما .. وهذا - بالقطع - يصيبه بالأرق الدائم ،

---

(١) الآيتان : ٢٠١ ، ٢٠٢ الأعراف .

(٢) تفسير ابن كثير : ٢/٢٧٩ .

(٣) راجع على سبيل المثال : كيفية إخراج الجان من جسم الإنسان : ص ٦١ ، ٦٢ .

وباعتلال في صحته ، وعدم اتزان في تفكيره .. وهكذا .

٣- الشعور بألم شديد في الرأس خاصة ، مع ارتفاع في درجة حرارتها ، وقد يشعر المريض بالألم في عضو آخر من أعضاء الجسم ويستخدم أنواعًا مختلفة من العقاقير والأدوية الطبية ، ولا يبرأ من هذه الآلام المبرحة عادة .. فيحتار الأطباء البشريون - ويتخبطون - في تشخيص المرض أو معرفة سبب الألم واختيار نوع العلاج الناجح - بإذن الله - لمثل هذه الحالات ، وربما أشاروا على أهل المريض باللجوء إلى العلاج النفسي ، ولا سيما ما يعرف بالعلاج النفسي الديني ، الذي يستخدم بصفة خاصة في «الحالات التي يتضح أن أسبابها وأعراضها تتعلق بالسلوك الديني للمريض ... ويفيد العلاج الديني في حالات القلق ، والوساوس ، والهستيريا ، وتوهم المرض ، والخوف ، والاضرابات الانفعالية ، ومشكلات الزواج ، والإدمان ، والمشكلات الجنسية [(١)] .

٤- الانصراف عن سماع القرآن بما أوتي من وسائل .. وأيضًا التكاسل عن أداء الصلاة ، فإن كان يصلي فإنه لا يحرص على أوقاتها أو المداومة عليها لدرجة تصل أحيانًا إلى أن يتوضأ ثم يسهو أو تأخذه الغفلة عن القيام للصلاة إما بنوم أو بانشغال في أمور دنيوية ، وقد ينتهي الأمر إلى ترك الصلاة أو إهمالها تمامًا ، أما إذا كان هذا الشخص لا يصلي أصلاً فتجده ينهمك في المحرمات والملذات [(٢)] ولا يتورع عن الفحشاء والمنكر ، بل قد يجاهر بها ويفاخر ، متجاهلاً كل المعايير والقيم الدينية ، بما في ذلك العقوبات الشرعية .. فإذا استيقظ ضميره الديني والأخلاقي ، وبدأ يشعر بالذنب ويخشى من العقاب الأخروي والدنيوي - حدث الاضراب النفسي أو «الصراع بين قوى الخير والشر ، وبين الحلال والحرام ، وبين

---

(١) الصحة النفسية والعلاج النفسي : للدكتور / حامد زهران ص ٣٧٨ الطبعة الثانية ١٩٧٨ عالم الكتب - القاهرة .

(٢) انظر : كيفية إخراج الجان ص ٦١ .

الجانب الملائكي والحيواني في الإنسان : أي أن الصراع قد ينشأ بين النفس اللوامة والنفس الأمارة بالسوء ، فيتأثر بذلك اطمئنان النفس المطمئنة ويحيلها إلى نفس مضطربة ، ونحن نعرف أن الصراع إذا استحكم صرع الإنسان وأدى إلى القلق الذي يؤرقه .

ويجمع أنصار العلاج النفسي الديني على أن (الخطيئة) وهي الذنب أو الإثم على مستوى الشعور ، و (الشعور بالإثم) نتيجة ما ارتكبه الإنسان من أعمال وسوس إليه بها الشيطان وكان يود ألا يرتكبها - يعتبران العنصر الأساسي في تكوين العصاب - [1] ويقول البعض : «إن الأمراض النفسية ومظاهر سوء التوافق النفسي هي أمراض الضمير ، أو هي حيلة هروبية من تأنيب الضمير» [2] .

٥- الشعور بالوحشة أو الخوف الشديد من الظلام أو من الرعد أو البرق أو من أماكن معينة أو من بعض الألوان والأرقام والحيوانات .. فضلاً عن الشرود الذهني والعزلة ، والتخبط في الأقوال والأفعال ، بل القيام بأفعال غير معقولة كالضحك والبكاء في آن واحد وبغير سبب [3] .

٦- العنة عند الرجال ، والبرود الجنسي واضطراب العادة الشهرية عند النساء .. وفي حالة الرجل الذي لا يقدر على الجماع أو على إتيان أهله قد يظن أن هذه حالة من حالات الربط ويبحث عن علاج له على هذا الأساس ، ثم لا يحدث تقدم ظاهر .. وكذلك المرأة التي تضطرب حيضتها كمًا وكيفًا وتوقيتًا «ويكون ذلك في شكل عسر الحيض وتوقفه أو عدم انتظامه أو انقطاعه ، ويسبقه التوتر

---

(١) أحد الأمراض النفسية والعقلية التي ليس لها أسباب عضوية معروفة حتى الآن ، ويرجع السبب الأكبر في حدوثها إلى اضطراب وظيفة الجهاز النفسي في المريض ، أو إلى تغيرات تكوينية في المخ .. ومن أعراضه القلق . والخوف ، وزيادة الحساسية والتوتر ، واضطراب التفكير والعلاقات الشخصية والاجتماعية .. (الصحة النفسية والعلاج النفسي : ص ٣٩١ وما بعدها .

(٢) المصدر المذكور : ٣٧٢ .

(٣) كيفية إخراج الجان : ص ٦١ ، ٦٢ .

النفسي والتهيج والاكتئاب والأرق ، ويصاحبه الألم والغثيان والقيء والتعب الجسمي العام» [1] .

وقد يكون من مظاهر عدم انتظام الدورة الشهرية عند النساء حدوث النزيف الدائم - أو ما يسمى في الفقه الإسلامي بدم الاستحاضة - في حالة ما إذا قرر الأطباء أنه غير عضوي ، وحينئذ يعزى إلى أنه من الشيطان كما قال النبي ﷺ لحمنة بنت جحش عن استحاضتها : «إنما هي ركضة من ركضات الشيطان» [2] . هذا فضلاً عن اضطرابات الجهاز التناسلي الأخرى ، والأسباب العامة للاضطرابات النفسية الجسمية ، والتي سبق ذكر بعضها [3] .

وجملة القول أن الشيطان حين يمس الإنسان فيصيبه بالصرع أو الجنون[4] ويظهر ذلك في تخبطه ؛ والتخبط المطلق هو التخبط في الحركة فلا يستطيع الإنسان التحكم في سيره ، فيمشي وكأنه يترنح من دوار ودوخة ، ويحس كأن الأرض تميد به ، أو يفقد القدرة على حساب المسافة الصحيحة أو تقدير الخطوة المتزنة لقدميه . والتخبط في الكلام أن لا يعي ما يقول ، ولا يستطيع الربط بين ما قال وما يقول وما يحب قوله بعد ذلك . ثم هنالك التخبط في الفكر ، وفي العمل .. فالتخبط ما هو إلا فقدان الإدراك الصحيح من الإنسان لأي شيء يهم به أو يفكر فيه ، وتلك علامات الجنون .

هذا ويسبب مس الشيطان للإنسان أمراضًا قد تتفق أعراضها مع أمراض

---

(١) الصحة النفسية .. للدكتور / حامد زهران ص ٤٨٤ .

(٢) رواه الخمسة وصححه الترمذي وحسنه البخاري .. (سبل السلام : للصنعاني (١٠١/١) طبعة دار الفكر) .

(٣) وراجع : كيفية إخراج الجان : ص ٦٢ والصحة النفسية والعلاج النفسي : ص ٤٠٠ ، ٤٣١ ، ٤٨٢ - ٤٨٤ .

(٤) راجع : المعجم الوسيط . وكذلك ما قرره الطبري والزمخشري والقرطبي والرازي والألوسي وغيرهم من المفسرين في قوله تعالى : ﴿يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ .

عضوية أخرى ، وقد تتميز فتختلف تمامًا عن أعراض الأمراض الأخرى كلها ، فإذا عولجت على أنها أمراض عضوية مؤكدة لا تستجيب لأي علاج ، أو لا تجدي معها تجارب الأطباء .

ومن الملاحظ أن للمس أعراضًا في المنام وأخرى في اليقظة : أما الأعراض التي في المنام ، فمنها : الأرق - القلق - الكوابيس - الأحلام المفزعة - رؤية الحيوانات في المنام كالقط والكلب والبعير والثعبان أو الحية والأسد .. إلخ .

ومنها أيضًا : القرض على الأنياب في المنام ، والضحك أو البكاء أو الصراخ أو التأوه في المنام ، وأن يمشي وهو نائم ، أو يحلم بأنه يسقط من مكان عال ، أو يرى نفسه في مقبرة أو طريق موحش ، أو يرى أشباحًا أو أناسًا بصفات غريبة وإن كان يعرف بعضهم لكنه يراهم في صورة مغايرة ..

وأما الأعراض التي في اليقظة ؛ فمنها : الصداع الدائم بلا سبب عضوي ، الشرود الذهني ، الخمول والكسل ، الصرع والتشنج .. فترى المصاب يخر مغشيًا عليه في عرض الطريق أو في المنزل أو في أي مكان ويتغير لونه وتتخشب أطرافه ويخرج الزبد من فمه ، وقد يحدث حركات تشنجية عنيفة حتى ليصيب نفسه أحيانًا .

ومنها أيضًا : الدوار ، التنميل في الأقدام أو الأيدي ، والألم في بعض الأعضاء ويعجز الطب عن علاجه ، فضلاً عن الصد عن ذكر الله والصلاة والطاعات .. [١] . «في مثل تلك الحالات يكون بصاحبها مس أو وسواس قهري أو أثر سحري أو نزغ شيطاني ناتج عن كثرة الغفلة أو الإعراض عن منهج الله» [٢] .

ولكني في الوقت ذاته أحذر من المبالغة في هذه التقسيمات ، ومحاولة استقصاء كل حركات بني آدم وسكناته ، حتى يكاد يظن القارئ لمظاهر وأعراض

---

(١) انظر : العلاج الرباني للسحر والمس الشيطاني : ٤٨ ، ٤٩ ومصادرها .

(٢) حوار مع الشياطين : للشيخ محمد الصايم : ص ٢٩ - دار الفضيلة .

الصرع والمس الشيطاني أن كل الناس ممسوسون ، مع أن الأمر في كثير منها يخضع لاحتمالات أخرى ؛ فالذي يبغض زوجته أو التي تكره زوجها ليس بالضرورة أن يكون ذلك بسبب السحر ، وإنما قد يكون نتيجة معاملات سيئة أو خلق قبيح من أحدهما ، أو لانعدام الحب الغريزي بينهما أو عدم توافق روحيهما .

وهكذا يمكن أن يقال في كل عرض أو مظهر من مظاهر الاضطراب أو التخبط السابقة ؛ فالصداع - مثلاً - قد يكون لمرض في العين ، أو الأذن أو الأسنان أو غيرها .

والأرق قد يكون نتيجة التفكير الشديد الملح على الذهن بخصوص معضلة أو أزمة تواجه المرء على المستوى الشخصي أو الاجتماعي .. وهكذا قد تعددت الأسباب ، للأمراض التي جعلوها علامات للصرع أو المس الشيطاني ، وكثير منها له علاقة بالحالة الصحية والنفسية والمادية [1] .

ولما كانت الأعراض أو المظاهر التي أشرت إليها - وما في معناها - يرى البعض أنها من نزغات الشيطان أو مس الجن ، على حين يرجعها بعض الدارسين إلى عوامل وراثية أو بيئية أو اجتماعية أو نفسية أو جسمانية أو عقلية .. فلنشر - فيما يلي - لأهم أقوال منكري التلبس أو الصرع وأدلتهم ، ثم نعرف بالمرض النفسي وأسبابه وأعراضه ، لنخلص بعد ذلك إلى توصيف للأمراض ووسائل علاجها إن شاء الله .

***

(١) وراجع : تسليط الصولجان على شياطين الإنس والجان : ١/٩٢-٩٤ .

الفرع الرابع : المنكرون دخول الجن بدن الإنسان ، وأدلتهم

تبين لنا - من جملة ما تقدم - أن وجود الجن ثابت بطرق كثيرة غير دلالة القرآن والسنة ، فمن الناس من رآهم ، وفيهم من رأى من رآهم ، وثبت ذلك بالخبر اليقين . ومن الناس من يأمرهم وينهاهم ويتصرف فيهم ، ومن ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «جماهير الأمم تُقِرُّ بالجن ولهم معهم وقائع يطول وصفها ... وليس لمن أنكر ذلك حجة يعتمد عليها تدل على النفي وإنما معه عدم العلم» (١) .

وفيما يتعلق بالمسألة التي معنا هنا فإنه - رحمه الله - أشار إلى أن الناس أقسام بالنسبة إلى تقسيم الصرع ورقيته ، وقال : أنكرت طائفة من المعتزلة كالجبائي وأبي بكر الرازي وغيرهما دخول الجن في بدن المصروع .

ثم يقول في موضع آخر : وليس في أئمة المسلمين من ينكر دخول الجني في بدن المصروع ، ومن أنكر ذلك ، وادعى أن الشرع يكذب ذلك فقد كذب على الشرع ، وليس في الأدلة الشرعية ما ينفي ذلك (٢) .. فلننظر فيما قاله الثقات ، لنرى هل تقوى أدلتهم على نفي المس الشيطاني أو تلبس الجن بدن الإنسان ..

يقول الزمخشري - عند تفسير آية الربا التي معنا - : ﴿لاَ يَقُومُونَ﴾ إذا بعثوا من قبورهم ﴿إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيطَانُ﴾ أي المصروع .

وتخبط الشيطان من زعمات العرب يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع ، والخبط الضرب على غير استواء كخبط العشواء ، فورد على ما كانوا يعتقدون ، والمس الجنون ، ورجل ممسوس ، وهذا أيضًا من زعماتهم ، وأن الجني

---

(١) مجموع الفتاوى : ١٩ / ٣٢ طبعة مؤسسة قرطبة .

(٢) المصدر المذكور : ١٩ /٦٢ وراجع أيضًا : آكام المرجان ص ٦ والجن والأحوال الشيطانية : ص ٨ ، ١٤ ومصادرها .

يمسه فيختلط عقله ، وكذلك : جُنَّ الرجلُ ، معناه ضربته الجن ، ورؤيتهم لهم وفي الجن قصص وأخبار وعجائب ، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات (١) .

على أنني لاحظت اضطراب عبارات المنكرين للمس ، في محاولة منهم لنفي المس ، وإخراج التشبيه في الآية عن إفادة تلبس الجن بالإنسان وخبطه له على الحقيقة كما أخبر الشرع عنها في نصوص أخرى من القرآن والسنة ؛ ولذلك وجدناهم يفسرون التخبط الذي يكون من آكل الربا بالجنون تارة ، وبالصرع تارة أخرى ، وبأن الله تعالى أرباه في بطونهم حتى أثقلهم وكلما أرادوا النهوض سقطوا ..

يقول الزمخشري في ذلك - بعد أن قرر أن تخبط الشيطان من زعمات العرب ، وأن من زعماتهم أيضًا أن الجني يمس الإنسان فيختلط عقله - : فإن قلت : بما يتعلق قوله : ﴿مِنَ الْمَسِّ﴾ ؟ قلت : بـ ﴿لا يَقُومُونَ﴾ ؛ أي لا يقومون من المس الذي بهم إلا كما يقوم المصروع .

ويجوز أن يتعلق بـ ﴿يَقُومُ﴾ ؛ أي كما يقوم المصروع من جنونه . والمعنى أنهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين ، تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف .

وقيل : الذين يخرجون من الأجداث يوفضون ، إلا أكلة الربا فإنهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين ؛ لأنهم أكلوا الربا فأرباه الله في بطونهم حتى أثقلهم فلا يقدرون على الإيفاض (٢) .

وفي تعليق الإمام ناصر الدين أحمد بن المنير الإسكندري المالكي - في كتابه (الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال) - قال : قوله : «وتخبط الشيطان من زعمات العرب» : أي كذباتهم وزخارفهم التي لا حقيقة لها كما يقال في الغول

---

(١) الكشاف : للزمخشري : ١/٣٩٨ - ٣٩٩ طبعة دار الفكر .

(٢) من الفعل أوفض بمعنى وفض ؛ عدا وأسرع .. انظر المصدر السابق : ١/٣٩٩ والمعجم الوسيط : مادة وفض .

والعنقاء ونحو ذلك . وهذا القول على الحقيقة من تخبط الشيطان بالقدرية في زعماتهم المردودة بقواطع الشرع ، فقد ورد «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان فيستهل صارخًا» ، وفي بعض الطرق «إلا طعن الشيطان في خاصرته ومن ذلك يستهل صارخًا ، إلا مريم وابنها لقول أمها : ﴿إِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ، وقوله عليه الصلاة والسلام «التقطوا صبيانكم أول العشاء فإنه وقت انتشار الشياطين» . وفي حديث مكحول «أنه مر برجل نائم بعد العصر فركضه برجله وقال : لقد دفع عنك الشياطين .. أو لقد عوفيت . إنها ساعة مخرجهم وفيها ينتشرون وفيها يكون الخبتة» قال شمر : كان في لسان مكحول لُكْنَةٌ . وإنما أراد الخبطة من الشيطان : أي إصابة مس أو جنون . وقد ورد في حديث المفقود الذي اختطفته الشياطين وردَّته في زمنه عليه الصلاة والسلام أنه حدث عن شأنه معهم قال : فجاءني طائر كأنه جمل فتعثرني فاحتملني على خافية من خوافيه ، إلى غير ذلك مما يطول الكتاب بذكره .

واعتقاد السلف وأهل السنة أن هذه أمور على حقائقها واقعة كما أخبر الشرع عنها ، وإنما القدرية خصماء العلانية ، فلا جَرَمَ أنهم ينكرون كثيرًا مما يزعمونه مخالفًا لقواعدهم من ذلك : السحر وخبطة الشيطان ومعظم أحوال الجن ، وإن اعترفوا بشيء من ذلك فعلى غير الوجه الذي يعترف به أهل السنة ، وينبئ عنه ظاهر الشرع في ضبط طويل لهم ، فاحذرهم ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [1] .

وقال الجبائي : «الناس يقولون : المصروع إنما حدثت به تلك الحالة لأن الشيطان يمسه ويصرعه ، وهذا باطل ؛ لأن الشيطان ضعيف لا يقدر على صرع الناس وقتلهم ، ويدل عليه وجوه :

أحدها : قوله تعالى حكاية عن الشيطان : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن

---

(١) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (مطبوع على هامش الكشاف) : ٣٩٩/١ طبعة دار الفكر .

سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [١] وهذا صريح في أنه ليس للشيطان قدرة على الصرع والقتل والإيذاء وبذلك أيضًا قال المعتزلة والقفال من الشافعية» [٢] .

وأقول : صحيح أن الشيطان ليس له طريق يتسلط به على عباد الله المخلصين ، لا من جهة الحجة ولا من جهة القدرة ، وهو يدرك هذه الحقيقة ، ولذلك كان سلطانه على الغاوين ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [٣] .

والسلطان : هو تسلطه عليهم بالإغواء والإضلال ، وتمكنه منهم بحيث يؤزهم على الكفر أو الشرك .. أي : يدفعهم إليه ويحثهم عليه .

ثم إن سلطانه عليهم ليس له فيه حجة ولا برهان ، وإنما هم استجابوا له بمجرد دعوته إياهم ، فكأنهم أعانوه على أنفسهم ومكنوا عدوهم منهم بموافقته ومتابعته ، فسلطه الله عليهم عقوبة لهم ، وإلا فالله لا يجعل للشيطان على العبد سلطانا ، إلا بعد أن يخضع العبد لشيطانه وهواه ، وينسى ذكر الله ، ويغرق في الذنوب والخطايا . ومع كل هذا فليس في الآية التي استدل بها الجبائي - وما يشبهها - ما يفيد (صراحة أو ضمنًا إثباتًا أو نفيًا) قدرة الشيطان على صرع الإنسان وإيذائه . ما لم يكن الإيذاء معنويًا بسبب (استحواذ الشيطان عليه) ، كما قال الله تعالى : ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [٤] .

وإذًا فلا تصلح الآية أن تكون دليلاً على ما انتهى إليه الجبائي ومن وافقه . يقول الألوسي - صاحب (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) -

---

(١) من الآية : ٢٢ / إبراهيم .

(٢) التفسير الكبير : للإمام فخر الدين الرازي : ٧٨/٧ طبعة دار الكتب العلمية - بيروت ، وراجع أيضًا : تفسير الألوسي : ٤٩/٣ طبعة دار إحياء التراث العربي ١٩٨٥ م .

(٣) الآية : ١٠٠ / النحل .

(٤) الآية : ١٩ / المجادلة . وراجع : عالم الجن والشياطين ص ٣٢ .

«الآية التي ذكروها في معرض الاستدلال على مدعاهم لا تدل عليه ؛ إذ السلطان المنفي فيها هو القهر والإلجاء إلى متابعته ، لا التعرض للإيذاء والتصدي لما يحصل بسببه الهلاك . ومن تتبع الأخبار النبوية وجد الكثير منها قاطعًا بجواز وقوع ذلك من الشيطان ، بل وقوعه بالفعل ، وخبر : «الطاعون من وخز أعدائكم الجن» صريح في ذلك» (١) .

والثاني : الشيطان إما أن يقال : إنه كثيف الجسم ، أو يقال : إنه من الأجسام اللطيفة ، فإن كان الأول وجب أن يرى ويشاهد ، إذ لو جاز فيه أن يكون كثيفًا ويحضر ثم لا يُرى لجاز أن يكون بحضرتنا شموس ورعود وبروق وجبال ونحن لا نراها ، وذلك جهالة عظيمة . ولأنه لو كان جسمًا كثيفًا فكيف يمكنه أن يدخل في باطن بدن الإنسان .

وأما إن كان جسمًا لطيفًا كالهواء فمثل هذا يمتنع أن يكون فيه صلابة وقوة ، فيمتنع أن يكون قادرًا على أن يصرع الإنسان ويقتله (٢) .

والجواب على القولين المذكورين فيما يلي :

١- ليست كل الأجسام الكثيفة تُرى وتُشاهد ، حتى في عالم الحس كالميكروبات والجراثيم والمخلوقات الدقيقة التي لا ترى بالعين المجردة ، ويمكن بواسطة الأجهزة العلمية والعدسات المكبرة أن نراها ، ثم إن حواسنا محدودة القدرة ، فثمة أشياء في حياتنا فوق حواسنا ، ولا نستطيع معرفة كنهها ، بل إننا نستخدم مثلاً الكهرباء ونلمس آثارها دون أن نراها ، أو نجريها على إحدى حواسنا فلا يلزم من عدم رؤية الشيء عدم وجوده .

٢- أما قوله : لو كان جسمًا كثيفًا فكيف يدخل في باطن بدن الإنسان .. فيجاب عنه بأن في بدن الإنسان من الديدان والحيوانات المنوية والخلايا والجراثيم

---

(١) تفسير الألوسي : ٤٩/٣ ، ٥٠ الطبعة الرابعة ١٩٨٥ م .

(٢) التفسير الكبير : ٨٧/٧ وأيضًا آكام المرجان : ص ٢٠ ، ١٠٨ .

أو البكتريا الحية ما يفوق الحصر والعد ، حتى مكونات الدم فيها خواص الحركة وإن ذاتيًا ..

ويقول أبو القاسم الأنصاري : «ولو كانوا كثافًا يصح ذلك أيضًا منهم ، كما يصح دخول الطعام والشراب في الفراغ من جسمه ، فيجب تصحيح ذلك وتأويل المس منه عليه» (١) .

وقال ابن عقيل : «أما قولك : إن الأجسام لا تتداخل فالجسم اللطيف يجوز أن يدخل إلى مخارق الجسم الكثيف كالروح عندكم ، والهواء الداخل في سائر الأجسام» (٢) .

٣- أما قول الجبائي ومن وافقه من المعتزلة : إن كان جسمًا لطيفًا كالهواء فمثل هذا ممتنع ... إلى آخر ما نقلنا عنه في نهاية الدليل الثاني .

فيجاب عنه بما تكرر في الفقرة السابقة ، ونضيف إليه :

أننا لم نعد نستبعد ضغط الغازات - أو الأجسام اللطيفة - وقوتها وقدرتها على تحريك الجمادات ، فما كان ممتنعًا بالأمس أصبح ممكنًا في عالم اليوم .

وأحسب أن الرياح الشديدة والأعاصير الهوجاء وما تفعله بالإنسان والحيوان والنبات والجماد لكاف في إثبات الآثار - الرهيبة أحيانًا - للأجسام اللطيفة التي لا نشاهدها كالهواء أو غيره .

يقول القاضي عبد الجبار : «إذا صح ما دللنا عليه من رقة أجسامهم وأنها كالهواء لم يمتنع دخولهم في أبداننا ، كما يدخل الريح والنفس المتردد الذي هو الروح في أبداننا من التخرق والتخلخل ، ولا يؤدي ذلك إلى اجتماع الجواهر في حيز واحد لأنها لا تجتمع إلا على طريق المجاورة لا على سبيل الحال . وإنما تدخل في أجسامنا كما يدخل الجسم الرقيق في الظروف» (٣) .

---

(١) آكام المرجان : ص ١٠٩ .
(٢) المصدر السابق : ص ١٦٢ .
(٣) غرائب وعجائب الجن : ١٥٩ .

وقد نقلت عنه - من قبل - قوله : «فإن قيل : إن دخول الجن في أجسامنا إلى هذه المواضع يوجب تقطيعها أو تقطيع الشياطين لأن المواضع الضيقة لا يدخلها الجسم إلا وينقطع الجسم الداخل فيها . قيل له : إنما يكون ما ذكرته إذا كانت الأجسام التي تدخل في الأجسام كثيفة كالحديد والخشب .

فأما إذا كانت كالهواء فالأمر بخلاف ما ذكرته ... ونضيف إليه قوله : «فإن قيل : يجوز أن يدخلوا في الأحجار . قيل : نعم إذا كانت مخلخلة ، كما يجوز دخول الهواء فيها . فإن قيل فيجب على ما ذكرتم دخول الشيطان وزوجته في جوف الآدمي فينكحها فتحبل وتلد فيكون لهم في جوف الواحد منا أولاد . قيل : قد أجاب أبو هاشم عن هذا السؤال بأن ذلك لا يمتنع في الأجسام الرقاق ، كما لا يمتنع ذلك في الأجسام اللطاف ، ألا ترى أنه ربما يجتمع في الجوف من الدود ونحوها شيء عظيم كثير ، وكذلك الرقيق من الأجسام غير ممتنع هذا منه» ... ويذكر حديث «الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» ويقول : هذا لا يصح إلا أن تكون أجسامهم رقيقة على مقتضاه ، ونظائر ذلك من الأخبار المروية في هذا الباب ، من أنهم يدخلون في أبدان الإنس .

قال ولشهرة هذه الأخبار وظهورها عند العلماء قال أبو عثمان عمرو بن عبيد : «إن المنكر لدخول الجن في أبدان الإنس دهريّ أو يجيء منه دهريّ» .

قال عبد الجبار : وإنما قال ذلك لأنه قد صارت في الشهرة والظهور كشهرة الأخبار في الصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة ، ومن أنكر هذه الأخبار التي ذكرناها كان رادًّا والرادُّ على الرسول ﷺ ما لا سبيل إلى علمه إلا من جهته كافر . ومن لا يعلم أن المعجزات لا يقدر عليها إلا الله عز وجل وحده لم يصح له أن يعلم أنّ الأجسام لا يفعلها إلا الله عز وجل . ومن لم يعلم ذلك لم يمكنه إثبات قادر لنفسه ، ولا عالم لنفسه ، ولا حي لنفسه . ومن لم يمكنه إثبات هذا لم يمكنه إثبات فاعل الأجسام ، وإذا لم يمكنه ذلك وهي موجودة لم يمكنه أن يثبتها محدثة ، وإذا لم يمكنه أن يثبتها محدثة ، وهي مع ذلك موجودة فلابد من أن تكون قديمة ، ومن

كان هذا حاله كان دهريًا على ما قاله ، وفساد قوله على ما ذكرناه من هذا الترتيب فهذا معنى قوله : دهري أو يجيء منه دهري . وقال أبو القاسم الأنصاري : «ولو كانوا كثافا يصح ذلك أيضًا منهم ، كما يصح دخول الطعام والشراب في الفراغ من جسمه . فيجب تصحيح ذلك وتأويل المس منه عليه» [١] .

الثالث : لو كان الشيطان يقدر على أن يصرع ويقتل لصح أن يفعل مثل معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وذلك يجر إلى الطعن في النبوة [٢] .

* ويمكن القول بأنه لا تلازم بين قدرة الشيطان على صرع الإنسان أو مسه وإيذائه ، وبين أن يأتي بما يشبه المعجزات .. ومع ذلك فقد حكى القرآن أن الله وهب عفريتًا من الجن قوة عظيمة يستطيع أن يفعل بها أمرًا خارقًا للعادة ، هو نقل عرش بلقيس العظيم من ديارها باليمن إلى سليمان عليه السلام في بيت المقدس حين قال : ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [٣] .

ومع ذلك أيضًا لا يستقيم القول بأن هذا يجر إلى الطعن في النبوة . كما أن الفرق بين آيات الأنبياء وبين السحر والكهانة وما يشبهها من الأحوال الشيطانية - كما وصفها ابن تيمية - أظهر من أن نقف عنده [٤] .

هذا فضلاً عما سنقرره بعون الله - في الرد على الدليل الرابع الآتي .

---

(١) والذي لا نستطيع إنكاره رؤيتنا أناسًا ملبوسين بالفعل ، وأقل تفسير لحالتهم : أنهم بعدوا عن ذكر الله ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ، فقادهم إلى الهوة التي عندها لا يستقر رأيه ، ولا يستريح ضميره ففي الالتزام صلاح واستقرار للنفس وتهدئة للقب .. (المصدر نفسه : ١٦٠ ، ١٦١) .

(٢) التفسير الكبير : ٨٧/٧ .

(٣) الآيتان : ٣٨ ، ٣٩ النمل .

(٤) وراجع : مجموع الفتاوى : ٢٧٦/١١ وما بعدها . وتجد تحليلاً لهذه الفروق مع نماذج من كرامات الصالحين وأهل الأحوال الشيطانية في كتاب (الجن والأحوال الشيطانية : ٤٦ - ٥٣ .

الرابع : أن الشيطان لو قدر على ذلك فَلِمَ لا يصرع جميع المؤمنين ؟ ولِمَ لا يخبطهم مع شدة عداوته لأهل الإيمان ؟ ولما لا يغصب أموالهم ، ويفسد أحوالهم ، ويفشي أسرارهم ، ويزيل عقولهم ؟ وكل ذلك ظاهر الفساد ! .

واحتج القائلون بأن الشيطان يقدر على كل هذه الأشياء بوجهين :

(أ) ما روي أن الشياطين في زمان سليمان بن داود عليهما السلام كانوا يعملون الأعمال الشاقة على ما حكى الله عنهم أنهم كانوا ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ .

- والجواب عنه : أنه تعالى كلَّفهم في زمن سليمان ، فعند ذلك قدروا على هذه الأفعال ، وكان ذلك من المعجزات لسليمان عليه السلام .

(ب) أن هذه الآية وهي قوله : ﴿يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ صريح في أنه يتخبطه الشيطان بسبب مسه .

- والجواب عنه : أن الشيطان يمسه بوسوسته المؤذية التي يحدث عندها الصرع ، وهو كقول أيوب عليه السلام ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (١). وإنما يحدث الصرع عند تلك الوسوسة ؛ لأن الله تعالى خلقه من ضعف الطباع وغلبة السوداء عليه ، بحيث يخاف عند الوسوسة فلا يجترئ فيصرع عند تلك الوسوسة ، كما يصرع الجبان من الموضع الخالي . ولهذا المعنى لا يوجد هذا الخبط في الفضلاء الكاملين وأهل الحزم والعقل . وإنما يوجد فيمن به نقص في المزاج وخلل في الدماغ .. فهذا جملة كلام الجبائي في هذا الباب (٢) .

***

---

(١) من الآية : ٤١ ص .

(٢) التفسير الكبير : للإمام فخر الدين الرازي : ٨٧/٧ وحاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي : ٥٨٦/١ طبعة دار صادر - بيروت .

والجواب عن ذلك كله من عدة نواحٍ ، تبعًا لما ورد في كلام الجبائي وغيره :

١- أنه ليس كل الجن كفارًا أو أشرارًا [١] حتى يحرصوا على إيذاء جميع المؤمنين . وقد رأينا أن لا سلطان لهم ولا للشياطين على عباد الله المخلصين .

٢- أما تكليف الله عز وجل الجن بالأعمال الشاقة في زمن سليمان عليه السلام وجعل ذلك معجزة أو خصوصية له .. حتى لقد امتنع نبينا - محمد ﷺ - عن ربط الجني الذي تعرَّض له في الصلاة لما تذكر دعوة أخيه سليمان : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [٢] .

لكن الأحاديث الصحيحة الواردة في هذه المسألة تفيد تكرار حدوث هذا الأمر ، وأن الله عز وجل مَكَّنَ النبي ﷺ منه ، ولولا دعوة سليمان لأصبح ذلك العفريت موثقًا يلعب به الولدان . فكأنه جسم كثيف له هيئة أو صورة معينة كما كانوا في زمن سليمان ، وكما أتى قريشًا في صورة سراقة بن مالك مرة ، والشيخ النجدي لما اجتمعوا بدار الندوة مرة أخرى .. والنبي ﷺ ينفي أن يتمثل به الشيطان ، وهذا لا يمنع من التمثل والتشبه بغير صورته ﷺ [٣] .

وإلى جانب هذا فإنه لا ينبغي أن نحمل دعوة سليمان عليه السلام فوق ما تحتمل ، وإلا فيمكن الزعم بأن إسلام الجني على يد الإنسي يخالف دعوة سليمان ، والأمة مجمعة على إسلام جمع غفير من الجن على يد النبي ﷺ ، وقد نصت على ذلك سورتا [الأحقاف] و [الجن] . كما ثبت بالنص وما يشبه الإجماع أن الجن داخلون في عموم بعثة النبي ﷺ ، وأنه بعث إلى الثقلين (الإنس والجن) فآمن به من آمن ، وكفر به من كفر [٤] .

---

(١) انظر مثلاً : آكام المرجان : ص ٥٧ - ٦٢ وعالم الجن والشياطين : ص ٤١ وما بعدها .

(٢) من الآية ٣٥ ص .　　　(٣) وراجع : الآكام : ١٨ وما بعدها .

(٤) انظر مثلاً : المصدر السابق : ٣٦ ولقط المرجان : ٤٤ وكيفية إخراج الجان : ٤٩ .

٣- أما تفسيرهم المس بالوسوسة فغير مُسَلَّمٍ .. وقد قال القاضي أبو يعلى [١] : (الوسواس) يحتمل أن يفعل كلامًا خفيفًا يدركه القلب ، ويمكن أن يكون هو الذي يقع عند الفكر ويكون منه مس وسلوك وذهول في أجزاء الإنسان ويتحفظه .

- فإن قيل : يحمل قوله عليه الصلاة والسلام : «يجري من ابن آدم مجرى الدم» يعني وساوسه تجري منه هذا المجرى ، كما قال تعالى : ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [٢] معناه أُشْرِبُوا حبه .

- قيل : لو لم يدخل في جوف الإنسان لم يحس بوسوسة ؛ لأنه لا يجوز أن يحس بكلام أو وسوسة خارجة من جسمه إلا بصوت يسمعه بأذنه . وليس للشيطان صوت يسمع ، فهو بمثابة حديث النفس .

وقال ابن عقيل : فإن قال لك قائل : كيف الوسوسة من إبليس ، وكيف وصوله إلى القلب ؟

- قيل : هو كلام على ما قيل ، تميل إليه النفوس والطبع ، وقد قيل : يدخل في جسد ابن آدم لأنه جسم لطيف ويوسوس ، وهو يحدِّث النفس بالأفكار الردية .

- فإن قالوا : فهذا لا يصح لأن القسمين باطلان ، أما حديثه فلو كان موجودًا لسمع بالآذان . وأما دخوله في الأجسام ، فالأجسام لا تتداخل ؛ ولأنه نار فكان يجب أن يحترق الإنسان .

- قيل : أما حديثه فيجوز أن يكون شيئًا تميل إليه النفس كالساحر الذي يتوخى النفث إلى المسحور وإن لم يكن صوتًا . وأما قوله : لو أنه دخل فيه لتداخلت الأجسام ولاحترق الإنسان فغلط ؛ لأن الجن ليسوا بنار محرقة، [وإنما هم خلقوا من

---

(١) آكام المرجان : ص ١٦١ وغرائب وعجائب الجن : ٢١٨ .

(٢) من الآية [٩٣ : البقرة] .

نار في الأصل ، كما أن الإنسان خلق من طين ، ولا يظهر أثر الطين على جسده].

وأما قولك : إن الأجسام لا تتداخل فالجسم اللطيف يجوز أن يدخل إلى مخارق الجسم الكثيف كالروح عندكم أو الهواء الداخل في سائر الأجسام [١] .

والدليل الخامس : ذكره القفال ؛ وهو أن الناس يضيفون الصرع إلى الشيطان وإلى الجن فخوطبوا على ما تعارفوه من هذا . وأيضًا من عادة الناس أنهم إذا أرادوا تقبيح شيء أن يضيفوه إلى الشيطان ، كما في قوله تعالى : ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [٢] .

وقال الزمخشري - في «الكشاف» [٣] نحو كلام القفال عند تفسير قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ . وقد نقلت - قبل عدة صفحات - قوله : ﴿لاَ يَقُومُونَ﴾ إذا بعثوا من قبورهم ﴿إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي المصروع . وتخبط الشيطان من زعمات العرب [٤] يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع ... فورد على ما كانوا يعتقدون . والمس : الجنون ، ورجل ممسوس ، وهذا أيضًا من زعماتهم ، وأن الجني يمسه فيختلط عقله . وكذلك جن الرجل : معناه ضربته الجن ورأيت لهم في الجن قصص وأخبار وعجائب . وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات .

الدليل السادس : قال بعض المتكلمين في إنكارهم سلوك الشيطان في

---

(١) راجع : آكام المرجان في أحكام الجان ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٢) الآية : ٦٥ / الصافات .. وراجع التفسير الكبير للفخر الرازي (٧٨/٧) .

(٣) وهو تفسير القرآن الكريم ، المعروف بالكشاف ... للإمام محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨ هـ) : ٣٢٠/١ دار الكتاب العربي .

(٤) أي كذباتهم وأباطيلهم التي لا حقيقة لها ، كما يقال في الغول والعنقاء ونحو ذلك . وهذا القول (إنكار تخبط الشيطان ، ومعظم أحوال الجن) من أقوال المعتزلة . ومن على شاكلتهم - المردودة بقواطع الشرع .. كما أوردنا من سنة رسول الله ﷺ الصحيحة في غير موضع : وراجع مثلاً : آكام المرجان : أبواب ٥١ ، ١٠١ - ١٠٨ وتفسير الألوسي : ٤٩ .

أجسام الإنس : «لا يجوز وجود روحين في جسد . فإن قيل : كيف يصح سلوكه في الإنسان وتحفظه له وهو من نار ، معلوم أن النار تحرق الآدمي» (١) .

وأجيب عن ذلك بأن النار لا تحرق بطبعها (٢) ، وإنما يحدث الله تعالى فيها الإحراق حالا لحالاً ، فيجوز أن لا يحدث فيها الإحراق في حال سلوكه .

ثم إن الجن ليسوا بنار محرقة ، وإن خلقوا من نار في الأصل (٣) . ففرق بين النشأة الأولى وما هم عليه بعد ذلك ، كالإنسان الذي خلق من طين أساسًا ، ثم سوى الله تعالى بنيته بالأطوار التي وردت في آيات الذكر الحكيم (٤) .

الدليل السابع : وقال قائلون : إن معنى سلوكهم في الإنس إنما هو بإلقاء الظل عليهم ، وذلك هو المس ، ومنه الصرع والفزع .

وذلك أيضًا مما يدفعه العقل ، غير أنه ورد السمع بسلوكهم في الإنس ووضع الشيطان رأسه على القلب . والله تعالى أعلم (٥) .

وهكذا يمكن الرد على أقوال النفاة وأدلتهم ، ومن ثم ترجيح القول الآخر - وهو تلبس الجن ببدن الإنسان - حيث تؤيده الأدلة الشرعية والمشاهدة الواقعية .. وذلك على الرغم من أن الأدلة الواردة في موضوع الصرع أو المس الشيطاني - على العموم - لم تسلم من معارض على نحو ما ؛ فما كان منها صحيحًا ليس بصريح ، وما كان منها صريحًا فغالبه غير صحيح .. حتى الآيات القرآنية - وإن كانت قطعية الثبوت - ليست قطعية الدلالة ، أي ليست صريحة في إثبات ذلك ، ومن ثم

---

(١) آكام المرجان : ص ١٦١ أو غرائب وعجائب الجن ص ٢١٨ .

(٢) وقد سلبها الله عز وجل خاصية الإحراق في قصة إبراهيم عليه السلام ، فكانت بردًا وسلامًا عليه .. الآيتان ٦٨ ، ٦٩ الأنبياء .

(٣) راجع : المصدرين السابقين : نفس المواضع فيهما .

(٤) اقرأ مثلاً : الآيات : ١٢ - ١٤ / المؤمنون ، والآية : ٢ / الدهر ، و الآية : ١٧-٢٢/ عبس .

(٥) آكام المرجان في أحكام الجان ص ١٠٩ .

اختلف العلماء في تفسيره [١] .

كما أن غالبية ما نراه من حالات الصرع - أو مظاهر الجنون - هي في الحقيقة أمراض نفسية أو عقلية - أو جسمية نفسية - أخطأ أصحابها طريق العلاج . ولعل هذا ما دفع أحد الباحثين إلى القول بأن كلمة جنون اختفت من القاموس الطبي . وزعمه أن دخول الجني في الإنسي ونطقه على لسانه أنه مفهوم علمي خاطئ مائة في المائة [٢] .

وقد تتضح هذه الحقيقة أكثر حين نعرض للأمراض النفسية : أسبابها ، وأعراضها ، وطرق علاجها .. فيما يلي :

***

---

(١) وراجع في ذلك : رسالة ماجستير عن عالم الجن بين الإسلام والمسيحية للباحث / أحمد حسين - كلية الدعوة ، جامعة الأزهر ، وقد نشرت خلاصتها بمجلة الوطن الكويتية يوم الإثنين ٧ ذو القعدة ١٤١٤ هـ / ١٨ إبريل ١٩٩٤ م .

(٢) كيفية إخراج الجان : ٥٥ ، وقد أجاب الشيخ ابن باز عليه قائلاً : (كل ذلك باطل نشأ عن قلة العلم بالأمور الشرعية ، وبما قرره أهل العلم من أهل السنة والجماعة ، وإذا خفي هذا الأمر على كثير من الأطباء لم يكن ذلك حجة على عدم وجوده ، بل يدل ذلك على جهلهم العظيم بما علمه غيرهم من العلماء المعروفين بالصدق والأمانة والبصيرة بأمر الدين ، بل هو إجماع - والأولى أن يقال : اتفاق - من أهل السنة والجماعة كما نقل ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية عن جميع أهل العلم ، ونقل عن أبي الحسن الأشعري أنه نقل ذلك عن أهل السنة والجماعة) المصدر المذكور .

المبحث الرابع
الأمراض النفسية : (١) أسبابها ، أعراضها ، طرق علاجها

ويمكن تعريف المرض النفسي بأنه :

«اضطراب وظيفي في الشخصية ، نفسي المنشأ ، يبدو في صورة أعراض نفسية وجسمية مختلفة ، ويؤثر في سلوك الشخص فيعوق توافقه النفسي ، ويعوقه عن ممارسة حياته السوية في المجتمع الذي يعيش فيه .

والمرض النفسي أنواع ودرجات ، فقد يكون خفيفًا يضفي بعض الغرابة على شخصية المريض وسلوكه . وقد يكون شديدًا حتى لقد يدفع بالمريض إلى القتل أو الانتحار» (٢) .

ويقال : إن الظروف غير المناسبة في الأسرة لها أثرها على الصحة النفسية للطفل ابتداء من الإهمال أو نقص الرعاية ، ثم الحماية الزائدة أو التدليل ، والسيطرة أو التسلط للأبوين أو أحدهما ، والزواج غير السعيد أو الانفصال بالطلاق .. وما يترتب على كل ذلك من شعور بعدم الأمن ، ومن القلق والأنانية ، والخجل والتمرد ، والسلوك العدائي ، والتردد أو عدم الثقة بالنفس (٣) ..

---

(١) اعلم أن كلمة (النفس) أحد كلمات أو ألفاظ أربعة هي محور الدراسات النفسية عند المسلمين وغيرهم ، والألفاظ الثلاثة الأخرى هي القلب ، العقل ، الروح .. وقد ورد لفظ (النفس) مفردًا ومثنى ومجموعًا ومضافًا في ٣٦٧ موضعًا من القرآن الكريم . ولفظ (القلب) ورد في ١٤٤ موضعًا ولفظ (العقل) في ٤٩ موضعًا . ولفظ (الروح) في ٢٥ موضعًا .. ثم جاء علماء الحديث والأثر والفلسفة واللغة فحاولوا التوفيق بين دلالات هذه الألفاظ تارة ، والتمييز بينها تارة أخرى .. (انظر : الدراسات النفسية عند المسلمين : لعبد الكريم عثمان ص ٥٤ وما بعدها - الطبعة الثانية ١٩٨١ م مكتبة وهبة . والعقائد الإسلامية : للشيخ السيد سابق .. ص ٢٣٤ - ٢٤٢ ومصادره) .

(٢) الصحة النفسية والعلاج النفسي : ص ١٠ .

(٣) راجع المصدر السابق : ١٨ ، ١٩ ، ١٣٢ وما بعدها .

ثم تظهر - في مرحلة تالية - آثار الغرائز ، والحاجات ، والدوافع الفطرية والمكتسبة مثل الدافع الجنسي ودوافع السيطرة والتملك واللعب والاستطلاع . ومحاولة التوافق النفسي معها في ظل المعطيات الداخلية والخارجية للإنسان ، وخصوصًا إذا أخذنا في الاعتبار تقسيمات علماء النفس للشخصية الإنسانية وأنماطها وسماتها : كالنمط الدموي والصفراوي والسوداوي والانبساطي والانطوائي .. وأبعاد كل شخصية منها وفق نظريات التحليل النفسي [١] .

***

(١) المصدر نفسه : ٥٦ وما بعدها . والدراسات النفسية عند المسلمين لعبد الكريم عثمان ص ١٧٧ وما بعدها .

الفرع الأول : أسباب الأمراض النفسية [1]

تنقسم هذه الأسباب باعتبارات مختلفة ، وأهمها :

أسباب أصلية أو مهنية ، ثم الأسباب المساعدة أو المرسبة التي تعجل بظهور المرض النفسي .

وهنالك الأسباب الحيوية (كالوراثة ، والجنس ، والاضطرابات الفسيولوجية المتمثلة في اضطرابات وظائف الحواس وخلل الجهاز العصبي والتنفسي والهضمي والبولي والتناسلي ... وكذلك التغيرات الفسيولوجية المصاحبة لمراحل النمو المختلفة : البلوغ والزواج وسن القعود والشيخوخة) .

وأيضًا الأسباب البيئية أو المجال الاجتماعي الذي يحيط بالشخص أو المريض نفسيًا ، بما في ذلك من اضطرابات أسرية وسوء الأحوال الاقتصادية ، وسوء التوافق المهني أو الاجتماعي .

ثم الأسباب التكوينية الأساسية (النمط الجسمي ، المزاج الشخصي ، الغدد النخامية والدرقية ونحوها) .

*** العوامل العضوية المسببة للأمراض النفسية :**

- الأمراض المعدية والمزمنة وأمراض المخ والجهاز العصبي .

- التسمم الداخلي : (مثل التسمم البولي والكبدي والغيبوبة السكرية) والخارجي نتيجة إدمان المخدرات أو استنشاق الغازات السامة .

- العيوب والتشوهات الجسمانية خلقية كانت أو مرضية أو مكتسبة في أثناء الولادة أو أثر حريق أو حادث شوَّهَ صورةَ الجسم أو بِنْيَتَهُ الأساسية .

---

(١) انظر مثلاً : الصحة النفسية : ١١٥ وما بعدها . والعقائد الإسلامية ص ١٥٤ .

الأسباب النفسية : الصراع والإحباط ، والحرمان ، والعدوان والعادات غير الصحيحة الجسمية أو الاجتماعية أو العقلية المعرفية .

ونعود لنذكر هنا بأن من أخطر أسباب الأمراض النفسية الضلال والبعد عن الدين أو عن الإيمان ، أو لِنَقُل : اختلاط المفاهيم وضعف القيم والمعايير الدينية ، مع عدم الالتزام بالتكاليف الشرعية من أوامر ونواهٍ ، وما ينشأ عن ذلك من شعور بالذنب وتوقع العقاب وصراع بين قوى الخير والشر في الإنسان ، أو بين الحلال والحرام ، أو بين النفس اللوامة والنفس الأَمَّارة بالسوء فتتأثر النفس المطمئنة وتتحول إلى نفس مضطربة . ومعلوم أن أي صراع من هذا القبيل إذا استحكم صرع الإنسان ، وأدى إلى القلق الذي يؤرقه . فضلاً عن الشعور بالإثم ، والخوف المرضي والتوتر والاكتئاب والتشاؤم .. ونحو هذا مما يسمى بأمراض الضمير [1] .

***

(١) راجع الصحة النفسية : ص ٣٧٢ ومصادرها .

الفرع الثاني : أعراض الأمراض النفسية

كل الأمراض النفسية تُلاحظ وتُصنف على أساس هذه الأعراض ، التي تعد علامة على المرض النفسي والأسباب التي أدت إليه ..

وكلما أمكن التعرف على الأعراض في وقت مبكر يكون ذلك أفضل من الناحية العلاجية ، حيث يفيد ذلك في نجاح العلاج ويمنع تطور الأعراض . هذا وقد تغلب بعض الأعراض ، وتصبح هي نفسها اضطرابًا نفسيًا أساسيًا أو مرضًا نفسيًا قائمًا بذاته ، كالقلق والخوف والوسواس وتوهم المرض والتفكك [1] .

ويلاحظ أن الأعراض متداخلة ، وأن الأسس التي يقوم عليها تصنيفها تختلف من حيث كونها أعراضًا داخلية أو خارجية ، عضوية المنشأ أو نفسية المنشأ . وكذلك من حيث ظهورها في الوظائف العقلية العليا أو وظائف أعضاء الجسم أو النواحي الانفعالية أو النواحي الاجتماعية .

فإذا أردنا أن نلقي نظرة عجلة على مظاهر أو أعراض الأمراض النفسية والاضطرابات التي تبدو على المريض وسلوكه ، لنرى إلى أي مدى تلتقي مع الأعراض التي تظهر على الممسوس من الجن عند من يقولون بتلبس الجن بدن الإنسان .

ونذكر من هذه الاضطرابات - التي يقول بها علماء النفس ، وتمثل أعراضًا للأمراض النفسية - ما يلي : -

(أ) اضطرابات الإدراك ، والإدراك هو قدرة الفرد على إدراك البيئة من حوله عن طريق حواسه وتفسير معناها .. لكن هذا الإدراك قد يضطرب لسبب من الأسباب السابقة على النحو التالي :

---

(١) انظر : الصحة النفسية - ص ١٣٩ ، ٣٩١ وما بعدها .

- الهلوسات وهي إدراك خاطئ لمثير حسي غير موجود في الواقع الخارجي .. وهي تختلف من حيث صفاتها مثل الوضوح والحجم واستجابة المريض لها ، ومن حيث دلالتها في التشخيص والتنبؤ ، فهناك الهلوسات السمعية ، والبصرية ، والشمية ، والتذوقية ، واللمسية ...

- الخداع الذي يوجد في جميع المدركات الحسية وغيرها .

(ب) اضطراب التفكير ومحتواه ، حيث الأوهام والوساوس والبلادة الفكرية .

(ج) اضطرابات الوعي أو الشعور كالذهول والهذيان ، والحيرة والارتباك .

(د) اضطرابات الكلام ما بين الكلام المتشنج وعيوب النطق والصوت .

(هـ) اضطرابات الانفعال : القلق ، والاكتئاب ، التوتر ، الفزع ، اللامبالاة ، مشاعر الذنب التي تسبب حالة عدم الاتزان النفسي وسوء التوافق الاجتماعي .

(و) اضطرابات الحركة : ومنها الوهن ، الشلل ، التشنج ، الارتجاف ، والتصلب ...

(ز) اضطرابات المظهر العام للجسم والملابس ، وكذلك اضطرابات الغذاء أو الأكل ، والنوم ، والإخراج ، وعدم التوافق - أو سوء التوافق الشخصي والأسري والاجتماعي والمهني ...

هذا فضلاً عن الانحرافات الجنسية ، وبعض الأعراض النفسية والجسمية والعصبية - كأمراض الجهاز البولي والتناسلي والعصبي [1] .

وهكذا يتبين لنا - من جملة ما سبق - أننا بصدد طائفة من الأمراض النفسية والعقلية والعضوية والعصبية . وأن مظاهرها أو أعراضها وانعكاساتها

---

(١) [illegible]

متداخلة متقاربة ، فمثلاً الحالة النفسية تتأثر بالحالة الجسمية والعكس صحيح ، ما دامت عادية والشخصية سوية متوافقة . والجسم يعتبر وسيطًا بين البيئة الخارجية وبين الذات ككيان نفسي ، ولذا يؤدي الضغط الانفعالي الشديد واضطراب الشخصية إلى اضطراب هذا التوازن .

كما أن هناك علاقة مباشرة بين الانفعالات والجهاز العصبي الذاتي الذي يترجم أي توتر انفعالي - ينقل إليه - إلى تغيرات فسيولوجية في وظائف الأعضاء .. فانفعال الحزن (مثلاً) يؤدي إلى انسكاب الدموع والبكاء . وانفعال الغضب يؤدي إلى إسراع ضربات القلب . وانفعال الخوف يؤدي إلى شحوب الوجه ، والقلق يؤدي إلى فقد الشهية .. وهكذا .

«ومن المعروف أنه كما يسبب المرض الجسمي الاكتئاب فإن الإرهاق العصبي يؤثر في وظائف أعضاء الجسم المختلفة . ونحن نعلم أنه لا يوجد جسم بدون نفس إلا الجماد والجثث ، ولا يوجد نفس بدون جسم إلا الأرواح والأشباح ، ولا يوجد مرض جسمي بحت يؤثر في الجسم دون النفس ، ولا يوجد مرض نفسي بحت يؤثر في النفس دون الجسم ، وإذا حدث أن أعيق التعبير الانفعالي وتوالى الإحباط والصراع والقمع والكبت وأزمن الانفعال بدأ تحويله وظهرت الأعراض النفسية الجسمية» [١] .

أضف إلى هذا أن كثيرًا من الأمراض النفسية والعقلية عضوية المنشأ كأن تكون ناتجة عن أورام أو تلف في المخ أو عن عدوى أو حمى أو تسمم أو اضطراب في الغدد أو في الجهاز العصبي أو الدورة الدموية ..

وهناك أمراض نفسية وعقلية نفسية المنشأ كالقلق والوساوس والاكتئاب والهستيريا ..

---

(١) الصحة النفسية ص ٤٧٦ .

ثم الاضطرابات الشخصية المرضية الاجتماعية ، المصاحبة للإنسان في مراحل نموه المختلفة ، وهي بالجملة عبارة عن سوء التوافق أو نقص التوافق مع البيئة ...

إلى جانب المشكلات النفسية الأخرى التي تشمل الضعف العقلي والاضطراب في الانفعال والكلام والنوم ..

فكيف يكون العلاج لمثل هذه الأمراض المختلفة في الأسباب والأعراض والآثار ؟ .

***

الفرع الثالث : طرق العلاج النفسي

تتعدد طرق العلاج النفسي ، وتستند كل منها على إحدى نظريات الشخصية أو السلوك أو العلاج .. ولكن كل طرق العلاج النفسي - مهما اختلفت أو تعددت - فإنها تسعى في النهاية إلى تحقيق الأهداف العامة للعلاج النفسي ، كما أنها جميعًا تشترك في الإجراءات العامة لعملية العلاج النفسي [(١)] .

فإذا لاحظنا - كما رأينا في الفقرتين السابقتين - أن بعض الأمراض النفسية والعقلية عضوية المنشأ ، وبعضها الآخر نفسية المنشأ بسبب عوامل البيئة والمؤثرات الاجتماعية التي خضع لها الفرد منذ طفولته فعددت سمات شخصيته ، سوية كانت أو غير سوية - إذا لاحظنا هذا فإننا لا نكون مسرفين في التحليل أو في وضع نظام لعلاج الأسباب والأعراض على السواء .

ويمكن إجمال طرق العلاج - في ضوء التحليلين المذكورين - على النحو التالي :

أولاً : العلاج بالأدوية والعقاقير ، ويطلق عليه - في مجال الأمراض النفسية - أحيانًا اسم العلاج النفسي بالعقاقير . وأحيانًا اسم العلاج بالأدوية الطبيعية [(٢)] أو العلاج الكيميائي ، ولقد استمر استخدام العلاج بالصدمات

---

(١) الصحة النفسية : ص ٢٢٣ وكان الدكتور / حامد زهران قد أشار إلى الجذور التاريخية لما يوجد الآن من فكر عن الصحة النفسية والأمراض النفسية والعلاج النفسي في الحضارات القديمة . وقال : إنه منذ حوالي ٣٠٠٠ سنة ق . م كان الاعتقاد السائد أن الأمراض النفسية والعقلية ترجع إلى قوة خارجية ، وأن سببها مس الجن وتأثير الأرواح الشريرة ... وفي التوراة توجد إشارات إلى الأمراض العقلية وخاصة (الصرع) الذي كان يعرف بالمرض المقدس .. ثم تتبع المؤلف علاج هذه الأمراض في مصر القديمة ، وعند اليونان وفي الدولة الإسلامية الأولى مرورًا بالعصور الوسطى والعصر الحديث ، حتى تطلعات المستقبل : (راجع المصدر المذكور : ص ١٠٣ وما بعدها) .

(٢) راجع : زاد المعاد : ٣/٧٠ .

الكهربائية وظل هو الشائع إلى أن اكتشفت عدة عقاقير كان لها آثارها الفعالة في علاج الاضطرابات النفسية ، وزاد الآن عدد الأدوية والعقاقير التي يستخدمها المعالجون والأطباء النفسيون ، ومنها : المنبهات ، والمهدئات ، والمسكنات ، والمنومات ، ومضادات الاكتئاب والإدمان ، وعقاقير الهلوسة .. بل إن هناك ما يسمى بالدواء الوهمي الذي يستخدم لعلاج بعض مرضى الوهم .

ويجب أن يكون العلاج بالأدوية والعقاقير تحت الإشراف الطبي الدقيق ، وإلا أحدثت تأثيرات ضارة ، أو مضاعفات خطيرة بالمريض في جهازه العصبي والدوري والهضمي وخاصة الكبد .. وغير ذلك [١] .

ثانيًا : العلاج الجراحي ، ويلجأ إليه الأخصائيون في بعض حالات الأمراض النفسية المزمنة الناتجة عن علل عضوية أو جسمانية ، كأمراض المخ والأعصاب ، واضطرابات الغدد والدورة الدموية ، والتشوهات أو العيوب البدنية الوراثية أو المكتسبة ويستخدم هذا العلاج الجراحي - عادة - بعد فشل جميع المحاولات العلاجية الأخرى .

ثالثًا : العلاج الاجتماعي والبيئي المتمثل في تعديل الظروف البيئة المضطربة التي يعيش فيها المريض نفسيًا ، بما فيها من ضغوط أو عقوبات أو انفعالات نفسية .

إن العلاج الاجتماعي «عبارة عن التعامل مع البيئة الاجتماعية للمريض وتعديلها أو تغييرها أو ضبطها أو نقل المريض إما مؤقتًا أو بصفة مستديمة من البيئة الاجتماعية التي أدت إلى الاضطراب النفسي إلى بيئة اجتماعية أخرى بما يتيح ويحقق التوافق النفسي السوي المنشود » [٢] .

وقد يتم هذا العلاج في محيط الأسرة أو في المدرسة أو في المستشفى أو في مجال العمل ، أو في إطار المجتمع بشكل عام .. ومن ثم يجوز أن ندخل تحت هذه

---

(١) انظر : الصحة النفسية والعلاج النفسي ٣٦٤ - ٣٦٩ ومراجعها .
(٢) المصدر السابق : ص ٣٢٨ .

الطريقة أنواعًا أخرى من أنماط العلاج المعروفة كالعلاج السلوكي أو التربوي أو الاقتصادي أو الترفيهي أو الديني ... ولما كان هذا الأخير (العلاج الديني) له أهمية قصوى ويكثر الجدل حوله فسوف نخصص له الفقرة التالية :

رابعًا : العلاج الديني ، وقد يفيد هذا الشكل من أشكال العلاج في كثير من حالات الأمراض النفسية والعقلية ، حتى تلك التي يكون منشؤها عضويًا أو بدنيًا .. بل إن هذا العلاج الديني - أو كما يسميه ابن القيم - «الأدوية الإلهية تنفع من الداء بعد حصوله وتمنع من وقوعه ، وإن وقع لم يقع وقوعًا مضرا ، وإن كان مؤذيا . والأدوية الطبيعية إنما تنفع بعد حصول الداء ، فالتعوذات والأذكار إما أن تمنع وقوع هذه الأسباب ، وإما أن تحول بينها وبين كمال تأثيرها ، بحسب كمال التعوذ وقوته وضعفه ، فالرقى والعوذ تستعمل لحفظ الصحة وإزالة المرض ؛ أما الأول فكما في الصحيحين من حديث عائشة كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه بقل هو الله أحد والمعوذتين . ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يده من جسده ... وكما في الصحيحين : «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» ، وكما في صحيح مسلم عن النبي ﷺ : «من نزل منزلا فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك» . وكما في سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ كان في السفر يقول بالليل : «يا أرض ، ربي وربك الله ، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما يدب عليك ، أعوذ بالله من أسد وأسود ، ومن الحية والعقرب ، ومن ساكن البلد ومن والد وما ولد» .

وأما الثاني فكما تقدم من الرقية بالفاتحة والرقية للعقرب وغيرها [١] .

أجل ؛ كان علاج رسول الله - ﷺ - للأمراض بالأدوية الطبيعية أو العقاقير وما في حكمها تارة . وبالأدعية والآيات القرآنية أو ما يمكن تسميته بالأدوية الروحانية أو الإلهية تارة أخرى . وقد يستخدم النبي ﷺ النوعين معًا في علاج

---

(١) زاد المعاد : ٣/١٢٣ - ١٢٤ .

بعض الأمراض .. ومن ذلك ما روي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : بينا رسول الله ﷺ يصلي إذ سجد فلدغته عقرب في أصبعه ، فلما فرغ قال : «لعن الله العقرب ما تدع نبيًا ولا غيره» ثم دعا بإناء فيه ماء وملح ، فجعل يضع موضع اللدغة في الماء والملح ، ويقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين حتى سكنت ففي هذا الحديث العلاج بالدواء المركب من الأمرين الطبيعي والإلهي .. [1] .

ودلالة ذلك - من جانب آخر - أن عناية الإسلام بالطب الروحي لا تقل عن عنايته بالطب المادي ؛ لأن الأمراض المعنوية أشد فتكًا بالإنسان من الأمراض الحسية .. «فالانفعالات الخفية ، والخوف من المجهول ، والأرق ، والاضطرابات العصبية ، والتوجس ، واليأس ، والشك ، وكل ما ينسحب على نفس الإنسان من مشاعر وأحاسيس ، وكل ما يعتلج في صدره من ريب وظنون ، وكل هذا يدمر عزيمته ، ويثبط همته ، ويخلخل قواه ، ويجعله شخصًا مهزوزًا لا يقدر على مواجهة مصاعب الحياة ، ولا على مجابهة مشكلاتها .

ومن أجل هذا فإن معالجة الأمراض النفسية والقلبية الكامنة في بؤرة اللاشعور تنزع عن الإنسان أغلال اليأس والخوف والشك والتوجس ، وتنطلق به إلى عالم السكينة والاطمئنان والهدوء ، وهذا هو ما يتغياه الإسلام في المسلم .

والطب الروحي يتمثل في طلب الشفاء من الله ببركة دعاء أو رقية ، أو التعوذ بالله من شر الجان والعين» [2] . أو من كل مكروه جملة وتفصيلا .. وحسبك أن تعلم أن الاستعاذة من شر ما خلق [في سورة الفلق] تعم كل شر يستعاذ منه سواء كان في الأجسام أو الأرواح ، وسواء كان مصدر هذا الشر الإنس أو الجن أو الحيوان أو الجماد أو أي مخلوق آخر لا نعلمه ، والله يعلمه ..«والاستعاذة

---

(١) راجع : المصدر السابق : ٣/٧٠ ، ١٢٣ والتداوي بالقرآن : لعبد المنعم قنديل ص ١٢٥ طبعة سنة ١٩٨٩ مكتبة التراث الإسلامي .

(٢) المصدر الأخير : ص ١٢٧ .

من شر الغاسق - وهو الليل وآيته ؛ أي القمر إذا غاب [١] - تتضمن الاستعاذة من شر ما ينتشر فيه من الأرواح الخبيثة التي كان نور النهار يحول بينها وبين الانتشار ، فلما أظلم الليل عليها وغاب القمر انتشرت وعاثت . والاستعاذة من شر النفاثات في العقد تتضمن الاستعاذة من شر السواحر وسحرهن . والاستعاذة من شر الحاسد تتضمن الاستعاذة من النفوس الخبيثة المؤذية بحسدها ونظرها . والسورة الثانية ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ تتضمن الاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن ، فقد جمعت السورتان الاستعاذة من كل شر ، ولهما شأن عظيم في الاحتراس والتحصن من الشرور قبل وقوعها ؛ ولهذا أوصى النبي ﷺ عقبة بن عامر بقراءتهما عقب كل صلاة ، ذكره الترمذي في جامعه ، وفي هذا سر عظيم في استدفاع الشرور من الصلاة إلى الصلاة» [٢] .

وأعظم من ذلك التحصن بالدين - على العموم - ضد الشيطان والأمراض النفسية ، وهو ما نشير إليه في الفقرة التالية .

***

---

(١) أحد الأقوال في تفسيرها (راجع : تفسير ابن كثير : ٤/٥٧٣) .

(٢) زاد المعاد : ٣/١٢٣ وتجد طائفة من الأذكار لطرد الشيطان ، وكيفية العلاج بالقرآن في : غرائب وعجائب الجن : ١٤٥ - ١٥٦ وعالم الجن والشياطين من الكتاب والسنة : ٧٣ - ٨٦ وتسليط الصولجان على شياطين الإنس والجان : ١٠٠ وما بعدها . والعلاج الرباني للسحر والمس الشيطاني : ٥٢ وما بعدها .

الفرع الرابع : الوقاية الدينية من الأمراض النفسية

إن الإيمان والتدين عقيدة صحيحة وعمل مخلص ، والسلوك يجب أن يكون وفقًا لهما .. وإلا فإن السلوك المنحرف هو الذي لا يلتزم بالدين ، كما أن التيارات السلوكية المستوردة بلا تنقية ، والبعيدة كل البعد عن قيمنا وتعاليم ديننا - قد تصيب كثيرًا من الناس في عقيدتهم الدينية ، وإيمانهم بتعاليم الدين وعملهم وسلوكهم على هداه ، مما يؤدي إلى تشويه الشخصية الفردية والاجتماعية ، ولذلك فإن الوقاية الدينية من هذا التشويه - والأمراض النفسية الأخرى - تتضمن الاهتمام بكل من التربية الدينية ، والتربية الأخلاقية ، وبناء نظام القيم كدعامة أساسية للسلوك السوي ، وشرط أساسي لتحقيق التوافق النفسي .

ذلك أن التعاليم الدينية والقيم الروحية والأخلاقية تهدي الفرد إلى السلوك السوي ، وتجنبه الوقوع في الخطأ ، ومشاعر الذنب ، وعذاب الضمير فيشعر بالأمن النفسي ويتمتع بالصحة النفسية ... ويوصي الدين بإحداث التوازن بين جانبي الحياة : المادي والروحي ، تحقيقًا للتوافق النفسي وتكامل الشخصية [1] .

ومن جهة أخرى ، فإن الله عز وجل لم يذكر في القرآن النفس الأمارة بالسوء ولا النفس اللوامة إلا مرة واحدة ، على حين ذكر الشيطان وكرر التحذير منه - نحو تسعين مرة - وفي صور متنوعة ؛ ليأخذ الإنسان حذره فلا يضل ولا يشقى .

«إن عمل الشيطان في النفس مثل عمل الميكروب في الجسم ، والميكروب ينتهز فرصة ضعف الجسم فيهجم عليه محاولاً القضاء عليه والفتك به ، ولا خلاص للجسم من عمل الميكروب إلا إذا كانت له حصانة ، وفيه مناعة تبطل عمل الميكروب ، وتقضي على ضراوته .

---

(١) انظر : الصحة النفسية : ص ٣٧٣ .

وكذلك الشيطان ينتهز فرصة ضعف النفس ومرضها ، فيهجم عليها محاولاً إفسادها .

ولا خلاص منه إلا إذا صحت النفس من أمراضها ، التي هي المداخل الحقيقية للشيطان ووسوسته .

وأمراض النفس التي هي مداخل الشيطان هي نقائص الإنسان التي يجب عليه أن يتخلص منها حتى لا يكون للشيطان سبيل عليه وهذه الأمراض - أو هذه النقائص - هي على سبيل المثال لا الحصر : الضعف ، واليأس ، والقنوط ، والبطر ، والفرح ، والعُجب ، والفخر ، والبغي ، والجحود ، والكنود ، والعجلة ، والطيش ، والسفه ، والبخل ، والشح ، والحرص ، والجدل ، والمراء ، والشك ، والريبة ، والجهل ، والغفلة ، واللدد في الخصومة ، والغرور ، والادعاء الكاذب ، والهلع ، والجزع ، والمنع ، والتمرد ، والعناد ، والطغيان ، وتجاوز الحدود ، وحب المال ، والافتتان بالدنيا .. فهذه هي أمراض النفس ، وبواسطتها يتدخل الشيطان ليدمر حياة الإنسان ، وليزحزحه عن فضائله العليا ، ولا سبيل إلى طرده ومعالجة وسوسته وإغرائه إلا إذا عولجت النفس أولاً عن طريق المجاهدة ؛ حتى تبرأ من هذه الأمراض جميعها ، وتعود إليها الصحة والعافية ، وتكون نفسًا مطمئنة بالحق والخير.

وحينئذ يكون ذكر الله ، والاستعاذة به من الشيطان ، والتبري من الحول والقوة ، وإسلام الوجه لقيوم السموات والأرض مما يقوي من معنويات الإنسان ، ويرفع من مستواه الروحي ، حتى يصل الإنسان إلى درجة يخاف فيها الشيطان من أن يلقاه في طريق من الطرق ، كما حدث لعمر بن الخطاب رضي الله عنه .. فقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال لعمر : «يا ابن الخطاب ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا - أي طريقًا - إلا سلك فجا غير فجك» [1] .

---

(١) وليس ذلك خاصًا بعمر (رضي الله عنه) فإن من قوي إيمانه يقهر شيطانه ويذله .. كما يدل قوله تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ والشيطان نفسه يدرك هذه الحقيقة ، ولذلك ...»

إن سعادة الإنسان لا تتم إلا بكبح جماح النفس ، والتغلب على هواها باتباع وحي الله ، ومحاربة نزغات الشيطان» [١] والمحافظة على الصلوات في أوقاتها ، وتلاوة الأذكار باستمرار ودوام الاستعاذة من الشيطان ، والمداومة على قراءة القرآن ، وخاصة المعوذتين وآية الكرسي ، فهي حصن حصين من الجن بشهادة الجن أنفسهم «ولا تقرأ في بيت وفيه شيطان إلا خرج منه» [٢] .

وقال ابن تيمية : «ومن أعظم ما ينتصر به عليهم - أي الجن - آية الكرسي ... فقد جرب المجربون الذين لا يُحْصَوْنَ كثرةً أن لها من التأثير في دفع الشياطين وإبطال أحوالهم مالا ينضبط من كثرته وقوته فإن لها تأثيرًا عظيمًا في طرد الشياطين عن نفس الإنسان ، وعن المصروع وعمن تعينه الشياطين من أهل الظلم والغضب ، وأهل الشهوة والطرب» [٣] .

هذا وقد نهى الرسول ﷺ عن الأخذ برقى الجاهلية ، وتعليق التمائم والودع والخرز والالتجاء إلى الكهان والسحرة .. [٤] لأن كثيرًا من رقى الجاهلية كان يستعان فيها بالأصنام ، كما كانوا يعتقدون أن التمائم تشفى بنفسها ، وأن للودع والخرز تأثيرًا ذاتيًا ، لهذا نهى النبي ﷺ عن الرُّقَى - التي من هذا القبيل ، وقال : «إن الرُّقَى والتمائم والتِّوَلَة شرك» [٥] . ثم سمح بما لا يَمُتُّ منها بسبب إلى الأصنام أو إلى الشرك أو لا يتفق مع هدي الإسلام .

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، ونحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات .

= يقول : ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ والنبي ﷺ قال : «ولكن الله أعانني عليه فأسلم» أو «فلا يأمرني إلا بخير ..» وراجع : عالم الجن والشياطين ص ٣٤ ، ٣٥ ومصادره.

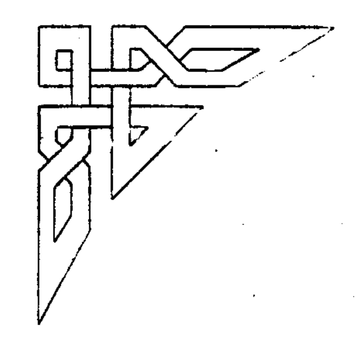
(١) العقائد الإسلامية : ١٥٣ - ١٥٥ .

(٢) راجع هذا الحديث وأحاديث أخرى في فضائل آية الكرسي في تفسير ابن كثير : ٣٠٤/١ -٣٠٨.

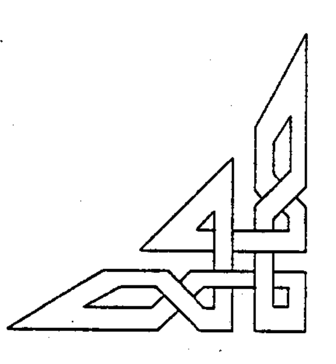
(٣) مجموع الفتاوى : ٥٣/١٩ .

(٤) وراجع : زاد المعاد : ٢٥٤/٤ - ٢٥٥ وآكام المرجان في أحكام الجان : ص ٥ ، ٦ والجن والأحوال الشيطانية عند شيخ الإسلام ابن تيمية : ص ٣٥ ، ٣٦ والتداوي بالقرآن ص ١٢٧ .

(٥) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه (نيل الأوطار ٢١١/٨) .



أهم مراجع البحث



أهم مراجع البحث

أولاً : القرآن الكريم

ثانيا : المراجع الأخرى [١]

(١) آكام المرجان في أحكام الجان : أبو عبد الله الشلبي - الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ .

(٢) إعلام الموقعين : ابن القيم - المطبعة المنيرية - القاهرة .

(٣) بداية المجتهد : ابن رشد - طبعة دار الكتب الحديثة بمصر .

(٤) تحذير الناس أجمعين من شر إبليس والشياطين : محي الدين الطعمي - المكتبة الثقافية : بيروت ١٩٩٣ م .

(٥) تحريم الربا تنظيم اقتصادي : الشيخ أبو زهرة - الدار السعودية للنشر .

(٦) التداوي بالقرآن الكريم : عبد المنعم قنديل - مكتبة التراث الإسلامي ١٩٨٩ م .

(٧) تسليط الصولجان على شياطين الإنس والجان : أمين محمد جمال الدين - مكتبة التوفيقية .

(٨) التعامل التجاري في ميزان الشريعة : د . يوسف قاسم - دار النهضة العربية .

(٩) تفسير آيات الربا : سيد قطب - دار المعرفة - بيروت .

(١٠) تفسير البغوي : طبعة دار المعرفة - بيروت .

(١١) تفسير البيضاوي - طبعة الحلبي ١٩٨٨ م .

(١٢) تفسير الطبري : طبعة دار الفكر ١٩٨٨ م .

(١٣) تفسير القرآن العظيم : الحافظ عماد الدين ابن كثير - طبعة دار إحياء التراث العربي ١٩٦٩ م .

(١٤) تفسير القرطبي - طبعة دار الكتاب العربي ١٩٦٧ م .

(١٥) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب : الفخر الرازي - دار الكتب العلمية - بيروت .

(١٦) تفسير الماوردي : الطبعة الأولى ١٩٨٢ م - الكويت .

(١٧) تفسير المنار : محمد رشيد رضا - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(١٨) تنمية الموارد المالية في الشريعة الإسلامية : د . إبراهيم عبد الرحيم - مكتبة دار

---

(١) مرتبة ترتيبًا ألفبائيًا .

العلوم .

(١٩) الجن والأحوال الشيطانية عند شيخ الإسلام ابن تيمية : خالد بن ناصر المعيلي - مكتبة الصحوة ١٩٨٩ م .

(٢٠) الجن والشياطين مع الناس : عبد الوهاب عثمان - الطبعة الثانية ١٩٨٩ م .

(٢١) حاشية محيي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي - دار صادر - بيروت .

(٢٢) حوار مع الشياطين : الشيخ محمد الصايم - دار الفضيلة .

(٢٣) الدراسات النفسية عند المسلمين : عبد الكريم عثمان - مكتبة وهبه - الطبعة الثانية ١٩٨١ م .

(٢٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : الألوسي البغدادي - دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٨٥ م .

(٢٥) زاد المعاد في هدي خير العباد : ابن قيم الجوزية - المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، بيروت .

(٢٦) زواج الجان من بني الإنسان : محمد مغاوري - الطبعة الأولى ١٩٩٥ م .

(٢٧) سبل السلام : محمد بن إسماعيل الصنعاني - طبعة دار الفكر .

(٢٨) الصحة النفسية والعلاج النفسي : د . حامد زهران - عالم الكتب ، القاهرة ١٩٧٨ م .

(٢٩) صحيح البخاري مع حاشية السندي - طبعة الحلبي وشركاه بمصر .

(٣٠) صحيح مسلم بشرح النووي : طبعة الشعب .

(٣١) عالم الجن والشياطين : د . عمر سليمان الأشقر - مكتبة الفلاح ، الطبعة الخامسة ١٩٨٩ م .

(٣٢) عالم الجن والشياطين من الكتاب والسنة : محمد بن بيومي - مكتبة الإيمان .

(٣٣) العقائد الإسلامية : السيد سابق - دار الكتاب العربي ، بيروت .

(٣٤) عقد المرجان فيما يتعلق بالجان : علي بن برهان الحلبي الشافعي : تحقيق مصطفى عاشور - مكتبة ابن سينا ، القاهرة ١٩٨٨ م .

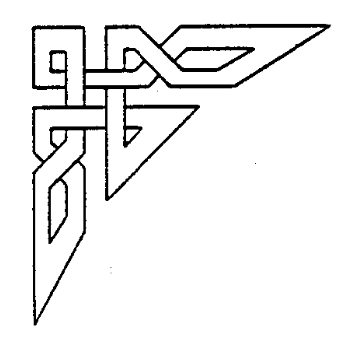
(٣٥) العلاج الرباني للسحر والمس الشيطاني : مجدي الشهاوي - مكتبة القرآن .

(٣٦) علوم الجان : محمد مغاوري - مكتبة الإيمان بالمنصورة .

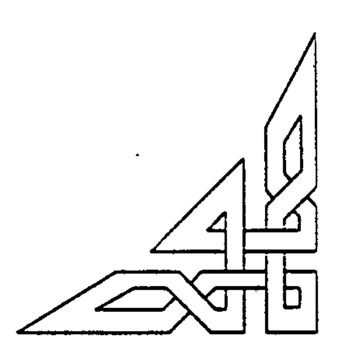
(٣٧) غرائب وعجائب الجن كما يصورها القرآن والسنة : لأبي عبد الله الشلبي : تحقيق

وتعليق إبراهيم الجمل - مكتبة القرآن - القاهرة ١٩٨٢ م .
(٣٨) في ظلال القرآن : سيد قطب - دار الشروق ١٩٨٦ م .
(٣٩) الكبائر : الذهبي - طبعة دار المسلم .
(٤٠) الكشاف (تفسير القرآن الكريم) : محمود بن عمر الزمخشري ، دار الكتاب العربي .
(٤١) كيفية إخراج الجان من جسم الإنسان : سعيد جاد ، علي بدوي - المكتبة الثقافية ، بيروت ١٩٨٣ م .
(٤٢) لقط المرجان في أحكام الجان : جلال الدين السيوطي : بتعليق خالد شبل - مكتبة التراث الإسلامي .
(٤٣) المبسوط : شمس الدين السرخسي - الطبعة الثانية ، دار المعرفة ١٩٧٨ م .
(٤٤) مجمع الزوائد : الهيثمي - طبعة القدس ١٣٥٣ هـ .
(٤٥) مجموع الفتاوى : ابن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، مؤسسة قرطبة .
(٤٦) المحلى : ابن حزم الظاهري - المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت .
(٤٧) مختصر تفسير الطبري : محمد الصابوني ، د . صالح رضا - دار التراث العربي .
(٤٨) مختصر تفسير القرطبي : محمد كريم راجح - دار الكتاب العربي ١٩٨٧ م .
(٤٩) مختصر تفسير المنار : السيد محمد رشيد رضا - المكتب الإسلامي ١٩٨٤ م .
(٥٠) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي - دار الحديث ، القاهرة .
(٥١) المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية .
(٥٢) المغني : ابن قدامة - الطبعة الأولى ١٩٩٠ م . القاهرة .
(٥٣) موسوعة البنوك الإسلامية - الطبعة الأولى ١٩٨٣/٨٢ م .
(٥٤) نيل الأوطار : الشوكاني - طبعة دار القلم ، دار الجيل - بيروت .

***



الفهرس



***

